

مَحْرَابُ الْحَنِينِ

شعر

الدكتور عدنان بوزان



2026

شعر

مِخْرَابُ الْحَنِينِ

الدكتور. عدنان بوزان

أيلول ٢٠٢٦

لم أعد أبحثُ عن وطن مهجور ..
بل عن قلبٍ لم تفسدهُ المسافات.
فالمنفى ليس أن تبتعدَ عن الأرض
بل أن تحملها في داخلك
ولا تجدَ في صدرك
موضِعاً يتسعُ لكلِّ هذا الثقل.

أمشي ..
وفي داخلي جهةٌ لا تهتدي إليها الخرائط؛
جهةٌ كلما اقتربتُ منها
أبعدتني الحياةُ عنها.
لأنني أكتب...

لا لأستعيدَ ما مضى
بل لأمنحَ الغيابَ جسداً
وأتركَ للحنين أثراً
كي لا يتحولَ ما أحببتهُ
إلى موتٍ بلا شاهد.

الإهداء

إلى الذين تركوا قلوبهم على عتبة الرحيل
ومضوا يحملون أوطانهم في حقائب لا ترى.

إلى أمي...
إلى وجهٍ ما زال يسكنُ نافذة الغياب
وإلى كلِّ قلبٍ أضاعهُ الطريق
ثم وجدَهُ في قصيدة.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١١
١- محراب الحنين	١٣
٢- تعبْتُ أنا	١٥
٣- مرثيةُ الوجد الأخير	١٨
٤- أموتُ في وجع الوطن	٢٠
٥- أبكي في وجع الوطن	٢٤
٦- من أين أبداً؟	٣٠
٧- ليلةٌ صامتة	٣٤
٨- ليلةٌ جريحة	٣٨
٩- يطاردونُ خيطَ الدخان	٤٠
١٠- لا تكسر مدينةَ الروح	٤٤
١١- لا أحدَ يعرفني أكثرَ مني	٤٦
١٢- أينَ السبيلُ إلى قلبك؟	٥٠
١٣- أريدُ أن أعرف	٥٥
١٤- وصايا الوطن للطغاة	٦٢
١٥- يا وجعَ القصيدة	٦٨
١٦- إلى قلبٍ أرهقه الحنين	٧٦
١٧- الإنسان... آخرُ الأوطان	٨١
١٨- حين لم يبقَ لي سوى ظلي	٨٨
١٩- أيُّها الكوردي	٩٧
٢٠- هذا ما تبقى من الرحيل	١٠٠
٢١- أبكي يا زمن	١٠٢
٢٢- حين اقتسمتُ وجعي مع الزمن	١٠٦
٢٣- أريدُ أن أعرف	١٠٩
٢٤- فوقَ نَعلي	١١٧
٢٥- يا صاحبةَ جروحاتي	١٢٠
٢٦- تعالي	١٢٧
٢٧- حين تزوريني غياباً	١٣٣
٢٨- ما بينَ اليأس والأمل	١٣٥
٢٩- أنا خارجُ ولادةِ التاريخ	١٤٢

- ٣٠- هنا ١٥٠
- ٣١- وطنٌ ضاعَ بين التاءِ والسَّين ١٥٦
- ٣٢- هواءُ حبِّكِ ١٥٩
- ٣٣- وطني... يا وجه القصيدة ١٦٢
- ٣٤- وراءَ البابِ عمرٌ كامل ١٦٥
- ٣٥- الليلة اليتيمة ١٧٣
- ٣٦- حين لا يبقى منك سوى الغياب ١٧٦
- ٣٧- أيلولُ آخرُ الرحيل ١٨٥

مقدمة

ليس الحنينُ أن نتذكرَ ما فقدناه، بل أن نكتشفَ، بعد فوات الأوان، أن بعض الأشياء التي ظننا أننا تركناها خلفنا، كانت هي التي تحملنا في الطريق.

نحن لا نغادرُ الأمكنةَ تماماً؛ فالأمكنةُ تغادرنَا أولاً، ثم تتركُ في أرواحنا غرفةً لا يسكنها أحد. ومنذ تلك اللحظة، يصبحُ الإنسانُ غريباً حتى عن الأماكن التي لم يغادرها، ويصبحُ قلبه وطناً مؤجلاً؛ كلما حاول أن يستقرَّ فيه شيءٌ، مرَّت به ريحٌ من جهةِ الماضي.

ولعلَّ أفسى ما في الغيابِ أنه لا يقتلُ الأشياء، بل يبقيها حيةً بالقدرِ الذي يجعلُ نسيانها مستحيلاً. تبقى الأمُّ في رائحةِ الصباح، والبيتُ في ظلِّ نافذة، والطفولةُ في ارتجافِ الطريق، والوطنُ في تلك المسافةِ الغامضة بين ما كان ينبغي أن يكون، وما لم يحدث.

من هنا ولدت هذه القصائد.

لم أكتبها لأستعيدَ زمناً انكسر، ولا لأستردَّ وطناً ابتعد، ولا لأفنعَ الحنينَ بأن يهدأ؛ فالحنينُ، حين يبلغُ أعماقه، لا يعودُ وجعاً يمكنُ علاجه، بل يصبحُ طريقةً أخرى للوجود. يصبحُ الإنسانُ فيه نصفين: نصفٌ يعيشُ في الحاضر، ونصفٌ آخرُ يقيمُ إلى الأبدِ في مكانٍ لا تصلُ إليه الخرائط.

لهذا كان الشعرُ بالنسبةِ إلَيَّ أكثرَ من كلمات. كان محاولةً لإنقاذِ ما لا يمكنُ إنقاذه؛ أن أمنحَ الغيابَ لغةً، والفقدَ ذاكرةً، والصمتَ نافذةً، وأن أضعَ للأشياء التي رحلتْ أسماءها الأخيرة قبل أن يبتلعها النسيان.

وفي عمقِ هذا كله، كان هناك سؤالٌ لا يكفُّ عن العودة:

ماذا يبقى من الإنسان حين تسقطُ من حوله الأماكنُ التي كان يعرفُ نفسه من خلالها؟

ربما يبقى الشعر.

وربما لا يبقى إلا ذلك الضوء الخافت الذي يشبهُ شمعةً وحيدةً في آخرِ ممرٍّ طويل؛ لا تنيرُ الطريق، لكنها تمنعُ العتمةَ من أن تقولَ إن الطريقَ لم يكن موجوداً.

لهذا سمَّيته «مخزَاب الحنين».

فالمحاربُ هنا ليس مكاناً للصلاة وحدها، بل الجهة التي يتجه إليها القلبُ حين تعجزُ الجهات. هو الموضع الذي يقف فيه الإنسانُ أمام غيابه، لا ليطلب منه العودة، بل ليعترف بأن بعض الغياب صار جزءاً من تكوينه.

في هذا الديوان لن يجدَ القارئُ وطناً مكتملاً، ولا حنيناً مطمئناً، ولا ذاكرةً تعرفُ كيف تنام. سيجدُ رجلاً يمشي بين أنقاض ما أحب، يحملُ في صدره بقايا بيت، وصوت أم، وظلَّ طريق، وامرأةً ربما لم تأت، ووطناً ربما لم يعد يعرفُ أبناءه؛ ثم يحاول، بالكلمات، أن يجمعَ شظايا روحه كما يجمعُ المرءُ زجاج نافذة مكسورة؛ لا ليعيد النافذة كما كانت، بل ليتأكد أن الضوء مرَّ من هنا ذات يوم.

أنا لا أكتبُ عن الحنين من خارجه؛
أنا أكتبُ من داخله.

من ذلك المكان الذي لا يرى، حيث تختلطُ الذاكرةُ بالجرح، والحبُّ بالفقد، والوطنُ بالمنفى، ويصبحُ الماضي ليس ما حدث وانتهى، بل ما ظلَّ يحدثُ فينا كلما ظننا أننا تجاوزناه.

ولعلَّ الشعرَ، في جوهره، ليس بحثاً عن الجمال كما يقال، بل بحثٌ عن المعنى حين يعجزُ الواقعُ عن منحه لنا.

لهذا كانت القصيدةُ عندي بيتاً أخيراً لا تهدمهُ المنافي، ونافذةٌ لا تستطيعُ الغربةُ إغلاقها، وصوتاً يظلُّ قائماً بعد أن يصمت كلُّ شيء.

«مِحْرَابُ الْحَيْنِ» ليس ديواناً عن الماضي؛
إنه عن ذلك الجزء من الإنسان الذي يظلُّ حياً، حتى بعد أن يموت المكان.
وما الشعرُ إلا أن نحرسَ هذا الجزء من الموت.

د. عدنان بوزان

محراب الحنين

في محراب عينيك أخشعُ للحنين
وأخلعُ عن قلبي غبارَ المسافات
وأدخلُ ليلكِ حافياً
كمن يعودُ إلى نبضته الأولى
بعد أن أضاعها الطريق.

عيناكِ نافذتانِ
تطلانِ على وطنٍ لا أعرفُ كيف أسميه؛
كلما دنوتُ منه
ابتعدتُ خرائطُ العالم
وضاقتُ المنفى
حتى صارَ غرفةً في صدري.

أجيءُ إليك
من آخرِ الجهات
وفي جيبي قمرٌ مكسور
وفي خطوتي
أعوامٌ غيابٍ
أضاعتُ أبوابها
وما زالت تبحثُ عن بيت.

يا امرأةً خبأتُ اسمها
بين ضلوعِ القصيدة
كلما ناديتُكِ
استيقظَ البحرُ في دمي
وعادَ المساءُ يحملُ رائحةَ بيتٍ
تركتهُ الريحُ مفتوحاً
للمرحلين.

أنا لا أشتاقُ إليك وحدك
أنا أشتاقُ إلى الرجل الذي كنته
حين كانت يداك
تضعان على كتفي
طمأنينةً العالم
قبل أن يتعلم قلبي
لغة الغياب.

فإذا ضاقتُ بي الجهات
عدتُ إلى عينيك
كغريب أضاع الطريق
فوجدَ في عيني حبيبته
وطناً لا يحتاجُ إلى جواز
ولا تحرسه
حدودٌ ولا خرائط.

وفي محرابِ عينيك
لا أطلبُ خلاصاً؛
يكفيني أن أخشع للحنين
وأن أترك قلبي
آخر صلاةٍ
على عتبة الغياب ..

تعبتُ أنا

تعبتُ...

كأنني كنتُ أمشي خارج اسمي
وأحملُ عمري على كتفٍ غريبٍ لا يعرفني ..
كأنني ظلُّ خرج من جسدٍ قديم
ونسيتُ الطريقَ إلى ملامحه الأولى.

تعبتُ كثيراً...

من هذه الرحلة التي لا تشبه السفر
بل تشبه انحداراً هادئاً في داخلي
حيث لا أرض تثبتُ خطوتي
ولا سماء تردُّ إليَّ وجعي.

تعبتُ من حياةٍ بلا اسم ..

من مدينةٍ تناديني ..

ثم تنكرني عند الباب

من وجوه تمر بي كأنني فراغٌ في ذاكرتها

ومن مرآةٍ كلما اقتربتُ منها

تراجعتُ أنا ..

من ملامحي خطوةً إلى الورا.

تعبتُ من ألمِ الأمل...

ذلك الضوء الذي يتخفى في هيئة وعد

ثم يتركني وحيداً في منتصف العتمة

كأن الأمل ليس إلا طريقةً راقيةً للنزف

وجرحاً يعرف كيف يتجمل كي لا نكرهه.

تعبتُ من آهاتِ زمنٍ عقيم ..

زمنٍ لا يلدُ سوى خيباتٍ وجروحات ..

تكبرُ في صدري ..
حتى تصير وطناً من الانكسار
زمنٌ يمر بي دون أن يمر ..
ويتركني في مكاني
لكنني أشيخُ في داخله كلَّ يوم.

تعبتُ من صراخ الليل...
حين تفتحُ الذاكرةُ أبوابها دفعةً واحدة
فتخرجُ منها الأسماءُ التي ظننتها ماتت
وأصواتُ كانت تقول لي: "ابقِ" ...
ثم انطفأت ..
كما ينطفئ ضوءُ خائفٍ في يد الريح.

تعبتُ ...
حتى صار التعبُ يتنفس في صدري
لا كعارضٍ عابر
بل كرفيقٍ إقامةٍ طويلةٍ في جسدي.

ومن شجرةٍ قدرٍ لا ظلَّ لها ..
تنبتُ في منتصف روجي
تثمرُ كلَّ يومٍ سؤالاً جديداً
وتسقطُ الإجاباتُ قبل أن تنضج
كأن القدرَ يكتبني ثم يمحو توقعه.

تعبتُ من نشوةِ الانتظار...
ذلك السرابُ الذي يتقنُ هيئةَ الماء
فتركضُ نحوه كي ننجو
فنكتشفُ أننا كنا نغرقُ أكثر كلما اقتربنا
وأننا في الانتظار نفقدُ أنفسنا ببطءٍ أنيق.

تعبتُ ..
من الطرق التي لا تؤدي إليَّ

ومن الأبواب التي تشبهني في الشكل
لكنها تغلق في وجهي كأنها لا تتذكرني
كأن العالم يتعمد اختبار غياي كل مرة.

تعبتُ من نفسي...
حين تقفُ على حافةِ المعنى ولا تقفز
وحين تبكي ..
ولا تعرف لأيّ جهةٍ يتجه الدمع
وحين تتكاثرُ فيها الأسئلة
حتى تصير أثقل من الإجابات.

ما زلتُ أمشي ...
كأنني أبحثُ عني في هذا الخراب الهادئ
كأن الطريقَ لم يخلق لي هزمني
بل ليعلمني كيف أبقى رغم كل شيء.

فيا أيها العمر...
إن كنتَ تسمعني من خلف هذا التعب
خَفَّفْ من وطأتك قليلاً
فأنا لستُ بطلاً في حربٍ مع الزمن
ولا أسطورةً تتقنُ النجاة
أنا فقط...
إنسانٌ
تعب كثيراً
ولم يجد بعدُ مكاناً ..
يضع فيه هذا القلب الذي أنهكه الطريق.

مرثية الوجد الأخير

كم مرة حاولتُ أن أحضن حياتي...
فانفلتتُ مني كعصفورٍ مكسور الجناحين
يخافُ من يدي أكثر مما يخافُ من الفراغ.

وأقرأ تاريخ ميلادي اليأس...
كأنني أفتش في دفتر الغياب ..
عن سببٍ واحدٍ ..
يجعلني أقلَّ وجعاً
فلا أجد ..

سوى أسماءٍ سقطتُ من ذاكرتي
وأيامٍ كانت تشبهني ..
ثم تخلت عني عند أول انكسار.

وأن أغرس أحلامي وآمالي في زهرة الربيع...
لكنَّ الربيع كان بعيداً عني
كأنه وعدٌ كتب لغيري
فكلُّ ما زرعتُه في قلبي ذبل
كأن الأرض ترفض أن تتذكر ملامحي.

كم مرة تمنيتُ ..
أن تُخضرَ شجرةٌ قدرتي...
لكن جذورها كانت تتغذى من خوفي
ومن ارتباكٍ أيامي ..
حين لا أعرف إلى أين أمضي
فبقيتُ واقفاً تحتها ..
مثل ظلٍّ لا يثمر.

وكم مرة أخفيتُ دموعي في بكاء الليل...

كي لا يوقظني الصبحُ على حقيقتي
وكي لا يراني القمرُ منهاراً أمام نفسه
فأبتسمُ للظلام ..
وأتركُ وجعي ..
يكتبني وحده ...
بلا شهود ..

أموتُ في وجعِ الوطن

يا أيها العابرونَ فوقَ ترابِ الحكاية...
تمهلوا قليلاً

فهذا الغبارُ ليس غبارَ طريقٍ

بل رماًدُ قلوبٍ

احترقتُ

كي يبقى للوطن اسمٌ

وللشمسِ نافذةٌ تطلُّ على الجبال.

أنا الكورديُّ...

ذلك الذي نامَ طويلاً

على وسادةِ الريح

وحينَ استيقظَ

وجدَ التاريخُ قد سرقَ صوتهُ

وتركَ له النايَ

كي يبكي وحيداً

في الممراتِ البعيدة.

أنا ابنُ تلكَ الجبالِ

التي كانتُ تخبئُ الثوارَ

كما تخبئُ الأمُّ طفلَها

من سكاكينِ الليلِ

وابنُ الأنهارِ

التي كلما رأتُ جثَّةً

غسلتها بالماءِ

كي لا تصلَ رائحةُ الموتِ إلى السماء.

إنْ مِتُّ يوماً...

فلا ترفعوا لي تمثالاً في الميادين

فالتماثيلُ قبورٌ واقفة
وأنا تعبتُ من الوقوفِ
على حدودِ الانتظار.

لا تجعلوا من اسمي
لافتةً للمتاجرة
ولا خطبةً سياسيةً
يصفقُ لها الذينَ
باعوا البلادَ
ثم بكوا عليها أمامَ الكاميرات.

اتركوني...
مثلَ إشراقةِ شمسٍ
تسلقُ جبالَ وطني بهدوء
ومرّتْ على القرى
توقظُ الخبرَ في التنور
وتعيدُ إلى الرعاةِ
أغانيهم القديمة.

اتركوني ..
مثلَ سنبلةِ قمحٍ
كسرتها الحربُ
لكنها ظلتْ تحفظُ
في قلبها
سرَّ المواسم.

أنا لم أكنُ نبياً
ولا فارساً من أساطيرِ الحديد
كنتُ فقط
رجلاً يحملُ وطناً جريحاً
في حقيبةِ قلبه...

ويمشي.

وكم مشيتُ...

مشيتُ حتى صارَتْ قدمايَ
خريطتينِ من التعبِ
وحقّ صارَ الليلُ
يعرفُ اسمي
أكثرَ من أصدقائي.

رأيتُ المدنَ
وهي تذبّجُ ببطءٍ
ورأيتُ الأطفالَ
يكبرونَ قبلَ أوانهم
كأنَّ الحربَ
أمُّ قاسية.

ورأيتُ النساءَ
يحملنَ البلادَ على ظهورهنَّ
كما تحملُ الأشجارُ
أعشاشَ الطيورِ
في العاصفة.

لكيّ...
رغمَ كلّ هذا الخرابِ
كنتُ أؤمنُ
أنَّ الوطنَ ليسَ رايةً فقط
بل خبزُ أمّ ..
ورائحةُ تراب ..
وصوتُ راعٍ
يعودُ عندَ الغروب.

كنتُ أؤمنُ
أنَّ البلادَ التي تنجُبُ النايَ
لا تموتُ
وأنَّ الشعوبَ
قد تهزُمُ ألفَ مرّةٍ
لكنها لا تفقدُ ذاكرتها.

لهذا...
حينَ يأتي موتي
لا تعلقوا صورتي
على الجدرانِ المتعبةِ
ولا تكتبوا تحتها:
"كَانَ هُنا شاعرٌ حزينٌ."
قولوا فقط:

"مرَّ من هنا
رجلٌ أحبَّ وطنه
أكثرَ من نفسه
وحاولَ أن يزرعَ
في هذا الليلِ الطويلِ
نافذةً للشمس."

ثمَّ اتركوني أرحل...
مثلَ أغنيةٍ كورديةٍ قديمةٍ
خرجتُ من قلبِ أمِّ
كانتُ تخبئُ دموعها
في طرفِ ثوبها
وتغني...

كي لا يسمعَ الأطفالُ
صوتَ انكسارِ العالمِ..

أبكي في وجع الوطن

ليس لي وطنٌ
كي أعلقه على جدار ..
ولا خريطةً
أشيرُ إليها بإصبعي
وأقولُ:
"هنا كنتُ طفلاً..."

أنا ابنُ الجهاتِ الضائعة
ابنُ الرياحِ
حينَ تنامُ وحيدةً
بينَ جبلين ..
وابنُ الحنينِ
حينَ يتحولُ
إلى دينٍ سرّيٍّ
تخافهُ الممالك.

يا وطني...
أيُّها الجالسُ كجريحٍ
في خاصرةِ التاريخِ
كم مرّةً ..
حاولوا دفنك
فكنتَ تنهضُ
مثلَ عشبةٍ بريةٍ
تشقُّ صدرَ الصخور.

وكم مرّةً ..
أحرقوا قراكَ
فصعدَ الدخانُ

إلى السماء
كأنه صلاة شعب
لم يجد معبداً
سوى الرماد.

أنا الكوردي...
ذلك الذي ولد
وفي فيه أغنية ناقصة
وفي قلبه
مقبرة تمشي.

حين كنت طفلاً
كانت أمي
تُخبّي الخوف
في طرف ثوبها
وتقول لي:
"نم يا بني..."
فالليل عابر.

لكنّ الليل
لم يكن عابراً...

كان يقيم طويلاً
في نوافذنا ..
ويأكلُ خبزنا
ويعلمُ أطفالنا
كيف يكبرون
دون طفولة.

يا وطني...
كم تشبهك الناي.

كلاكما
يخرجُ صوتهُ
من الثقوب.

وكلاكما ..
كلما حاولَ أن يغَيَّ
بكي.

أبكىك...
لا لأنَّكَ مهزوم
بل لأنَّكَ متعبٌ
من حملِ هذا العالمِ
فوقَ كتفيك.

أبكىك ..
لأنَّ الجبالَ
التي كانتَ تحفُظُ أسماءَ الثوار
صارَتْ تحفُظُ
أعدادَ القبور.

ولأنَّ النهرَ
الذي كانَ يوزعُ الحياةَ
صارَ يحملُ
وجوهَ الغرقى
إلى المنافي.

أبكىك ..
لأنَّ النساءَ
اللاتي كنَّ يُطرَّزنَ الفجرَ
على أكمامِ الأطفالِ
صرنَ يُطرَّزنَ

أسماء المفقودين.

ولأنّ الرعاة
الذين كانوا يعرفون
لغة الغيم
صاروا يعرفون
اتجاه الرصاص.

يا وطني...
كلُّ شيءٍ فيك
يشبه قصيدة
مزقتها الحرب.

البيوت...
أبوابٌ تبكي.

والشوارع...
أقدامٌ بلا ظلّ.

والأشجار...
أمهاتٌ واقفاتٌ
على قبورِ أبنائهنّ.

حتى الشمسُ
حينَ تمرُّ فوقَ جبالك
تبدو
كأنها تحملُ
نعشاً من الضوء.

لكني ..
رغمَ كلّ هذا الخراب
ما زلتُ أؤمنُ

أَنَّ الشُّعُوبَ
لَا تَمُوتُ حِينَ تَهْزَمُ
بَلْ تَمُوتُ
حِينَ تَنْسَى أَغَانِيَهَا.

لهذا ...
كُنْتُ كُلَّمَا ضَاقَتْ بِي الْمَنَا فِي
أَفْتَحُ نَافِذَةً لِلنَّايِ
وَأَتْرُكُ قَلْبِي
يَمْشِي حَافِيًا
فِي حَقُولِ الذِّكْرِ.

أَنَا لَا أُرِيدُ
مِنَ الْعَالَمِ
سِوَى وَطَنِي
لَا يَخَافُ فِيهِ الْطِفْلُ
مِنَ اسْمِهِ
وَلَا تَضْطَرُّ الْأُمُّ
أَنْ تَخِيطَ الْحَزْنَ
فِي ثِيَابِ الْمَسَاءِ.

وَحِينَ أَمُوتُ...
لَا تَرْفَعُوا صُورَتِي
فِي السَّاحَاتِ.

اتركوني ..
مِثْلَ غَيْمَةٍ كُورْدِيَّةٍ
مَرَّتْ فَوْقَ الْجِبَالِ
ثُمَّ ذَابَتْ
فِي عَيُونِ الرِّعَاةِ.

وقولوا فقط:

“كَانَ هُنَا

رَجُلٌ

كَلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَكْتُبَ قَصِيدَةً

نَزَفَ وَطَنًا...”

من أين أبدأ؟

من أين أبدأ؟
وأنتِ القصيدةُ التي أضاعت لغتي ..
والريحُ التي كلما مرت بقلبي
بعثرتُ أعوامي اليابسة
وأزهرتُ في خرابِ الروح قمحاً ونوافذ.

من أين أبدأ؟
أمن عينيكِ
اللتين تشبهان وطناً عاد من المنفى
محملاً برائحة الخبز والحنين؟
أم من صوتكِ
حين يهبط على قلبي
كأنَّ الله أرسل موسيقى
ليصالح هذا العالم على نفسه؟

من أين أبدأ؟
وأنتِ الحريقُ الذي يجتاح شراييني
والمطرُ الذي يطفئ عطش روجي
أنتِ النارُ والنهرُ معاً ..
النجاةُ والهلاكُ معاً ..
وما بينهما
أقف كمدينةٍ تتعلم للمرة الأولى
كيف تحبُّ الخراب إذا جاء من يديكِ.

أنتِ لستِ امرأةً أحبها فقط ..
أنتِ الزلزالُ الذي أعاد ترتيب أرضي
والشغفُ العنيفُ الذي جرني إليك
دون خوف ..

دون وصايا ..
ودون رغبةٍ في النجاة.

أنا لا أعشّقك بعقلي
فالعقلُ جبانٌ أمامكِ
ويعرف أن امرأةً مثلكِ
لا تفسر بالمنطق
بل تعاش كما يعاش الجنون
وكما تعاش العاصفةُ
حين تقتلع الأشجار
لكنها تترك السماء أكثر صفاءً.

أنا أعشّقك ..
بكل خليةٍ ترتجف في جسدي
بكل نبضةٍ ..
تحاول أن تنجو منك فتسقط فيك أكثر
وبكل الطرق التي أغلقتها على قلبي
ثم جئتِ أنتِ
ففتحتِها بوردة.

كلما اقتربتِ
يتوقف الزمن قليلاً ..
كأن الساعات تخجل من المرور قربكِ
ويصبح العالم كله أنتِ...
ولا أحد غيركِ.

أنتِ جنوني...
ذلك الجنونُ الجميلُ
الذي يجعلني أوّمن أن الحياة
قد تبدأ من لمسة ..
ومن نظرة ..

ومن امرأةٍ
تمشي فوق خرابٍ رجلٍ
فتحوّله إلى غابة.

أنتِ هذياني
وأجمل انكساراتي
فالذين أحبوا مثلكِ
لا ينجون كاملين
بل يخرجون من الحب
أكثر هشاشةً
وأكثر ضوءاً.

حين تضحكين ..
أشعر أن الليل يفقد هيئته
وأن القمر مجرد مصباحٍ صغير
في شارعٍ من شوارع عينيكِ.

وحين تغضبين
ترتجف الأشياء من حولي
كأن الكون يعرف
أن امرأةً واحدة
قادرة على تغيير طقس رجلٍ بالكامل.

كيف لحروفي أن تحتويكِ؟
وكيف للكلمات
أن تمسك هذا الفيض من النار؟
أنتِ أكبر من اللغة
وأوسع من القصائد
حتى الشعر
حين يراكِ
يشعر أنه ناقص.

أحبكِ...
كما يحب الغريق آخر نفسٍ من الهواء
وكما تحب الأرض المطر
بعد قرنٍ من الجفاف
وكما يحب المنفي نافذته الأولى
حين يعود إلى البلاد.

أحبكِ..
لأنكِ جعلتِ قلبي
يؤمن من جديد
أن الخراب ليس النهاية
وأن بعض النساء
يأتين إلى حياتنا
لا كي نحيهن فقط
بل كي يُعدن خلقنا
من البداية.

ليلة صامته

في ليلٍ لا اسم له ..
أقترُبُ من رائحتكِ ..
كأنني أستعيدُ نفسي من غيابها
وأضعُ قلبي على نارٍ هادئةٍ
كي يتعلم كيف يحبّ ..
دون أن يحترق دفعةً واحدة.

في وحدتي ..
أحكي لنفسي عنكِ ..
كأنني أكتبُ جسدي من جديد
وأغسلُ روحي من غبار المدن البعيدة.

عيناكِ...
لم تكونا عابرتين في ذاكرتي
بل كانتا تجلسان فوق صدري
كشعلتين لا تنطفئان ولا تعتذران.

وقوامكِ...
كان ظلّ فكرةٍ جميلة
تمشي أمامي
ولا تلتفتُ إلى تعب الأرض في خطواتي.

كنتِ تمرين في دمي
كما يمر المطر في شجرٍ عطش
فأصيرُ أكثرَ خضرةً...
وأكثرَ وجعاً في آنٍ واحد.

وأنا أعرف
أن يديكِ لم تكونا يدين فقط

بل مسرحاً صغيراً
تتدرب عليه كل احتمالات قلقي.

وشعركِ...

كان ذهباً ينسكب من غيم بعيد
يعلق النهار على جدران عيني
ويتركني بلا دفاعٍ أمام الضوء.

كنتِ تمشين داخلي
لا كحبيبةٍ فحسب
بل كقدرٍ يتدرب على اسمي
مرةً بعد مرة.

وفي صمت الليل ..
كان قلبي يتحدث مع قلبك
بلغّةٍ لا تحتاج إلى شفاه
لغةٍ تشبه ارتجاف الأشياء
حين تلمسها الحقيقة.

كل ما فيّ كان يختبئ فيكِ
كأن جسدي تعلم منك معنى الغياب
ومعنى أن يكون الحضورُ جرحاً جميلاً.

رائحتكِ...

كانت تفتح لي أبواب ليالٍ من زهر
وأنا أطفئ نوري كي أراك أكثر
وأترك دموعي تمشي وحدها
على وجهي كأنه وطنٌ بلا حدود.

صوتكِ...

لم يكن صوتاً فقط
كان أغنيةً تنام في أذني

وتستيقظ كلما مرّ الحنين باسمي..

وفي يدك ..
وجدتُ سلاماً لا يشبه سلام العالم
سلاماً هشاً...
لكنه يكفي كي أنجو من نفسي.

كنا نضحك للنجوم
فنبدو لها طفلين ضائعين
يختبئان في قميص الليل
ويعتذران من الحزن بابتسامةٍ صغيرة.

الحبّ بيننا
لم يكن حباً عادياً ..
كان موجاً يعلم البحر كيف يهتزّ
وكان البحر يتعلم منا
كيف ينسى حدوده.

وحين كنتِ تقترين
كانت الكلمات تستيقظ على شفتي
كأنها لم تخلق إلا لتقول اسمكِ.

وأنا...
كنتُ أشتعل بكِ بهدوء
وأمشي في داخلي كغريبٍ
يعرف طريقه جيداً
ولا يريد الوصول.

لا خوف بيننا
ولا بُعد
ولا صمتٌ يجرؤ على البقاء.

كان فقط دفء يشبه الحقيقة
حين تتعري من كل شيء.

وحين ينهض الصباح بعيداً
أبقى أنا...

أمشي في ضوء يشبهك
وأضيق بين الشمس وظلك
كأنني لم أكن إلا احتمالاً
من احتمالات حبك.

ليلة جريحة

في ليلٍ جريح ..
يمشي الظلامُ على عكازٍ وجعه
وأنا...

أجمعُ نفسي من شظايا ضوءٍ متألم
كما يجمعُ وطنٌ من بين الخراب.

السماءُ تنزفُ نجوماً بطيئةً
كأنها تجرُّ أسماءنا إلى الأسفل
ولا أحد يلتفت.

في صدري
نافذةٌ لا تغلق
يدخلُ منها الهواءُ كخنجرٍ قديم
ويخرجُ منها اسمي ناقصاً.

أيتها الغائبةُ في حضوري
كيف صرتِ ظلاً
يعلق قلبي على جدار الانتظار؟

كنتِ تمرين في دمي
كأنك لا تمرين
بل تزرعين غيابكِ
في كل نبضةٍ مني.

الليلُ جريحٌ مثلنا
يجرُّ أذياله بين الطرقات
ويبحث عن ضمادٍ
في يدِ قمرٍ مكسور.

حتى الريح ..
تتكلم لغة الألم
وتترك في وجهي
بقايا أسئلة لا تشفى.

أنا لست وحيداً...
أنا ممتلئ بكِ حدّ الانكسار
وممتلئ بالفراغ
حدّ الارتباك.

كلُّ شيءٍ هنا ينزف بصمت:
الجدران ..
الذكريات ..
وأنا...
حين أتذكرك.

في هذا الليل الجريح ..
لا فرق بين الحنين والدم
كلاهما يسيلُ
ببطءٍ شديد
ولا يعود.

أحببتُكِ ..
كمن يلمس جرحه ليطمئن
فيكتشف أنه صار أعمق.

وحين ينهض الصباح
لا يشفييني
بل يضع فوق جراحي
ضوءاً جديداً
يشبهك...
ويزيدني وجعاً.

يطاردونَ خيظَ الدخان

يطاردونَ خيظَ الدخانِ ..
ويحسبونَ الريخَ مملكةً
والصدى جيشاً
والسرابَ وطناً
معلقاً فوقَ خرائطِ الكلام.

ويمضونَ في الساحاتِ
كظلالٍ فقدتْ أجسادها
يرفعونَ راياتٍ من ورق
وحينَ يهطلُ المطرُ
تذوبُ الشعاراتُ
كما يذوبُ الملحُ
في دمةٍ بحرٍ هريم.

كنتُ أراهم ..
كلما اعتلوا منبراً
اتسعَ الفراغُ خلفَ أصواتهم
وكأنَّ الحروفَ التي أنفقوها
كانتُ تبحثُ عن معنى
فلا تجدُ
غيرَ جدارٍ من ضباب.

يطاردونَ خيظَ الدخان ..
ويعودونَ مثقلينَ بالخسارات
لكنهم يوزعونها على الناس
في أكياسِ الخطبِ الطويلة
ويبيعونَ الوهمَ
بأسماءٍ جديدةٍ

كلّ صباح.

كم شجرة يبست
في ظلّ وعودهم؟
وكم نافذة أغمضت عينها
كي لا ترى المواكب العابرة
فوق جسد الحقيقة؟

كانوا إذا تكلموا
ارتجفت المرايا من فائض الزيف
وإذا وعدوا
تساقطت الساعات
من أعمار المنتظرين
كأن الزمن نفسه
فقد ثقته بالكلمات.

أما أنا ..
فأسدلت على ضجيجهم
ستارة الصمت
لا خوفاً
بل لأن الحقيقة
أكبر من أن تعرض
في مزاد.

أسدلت الصمت
كما تسدل الأم
ستارة الليل
على طفل أتعبه البكاء
وتركت لهم
معاركهم المصنوعة من الهواء.
فما جدوى أن أشرح للغبار

أنه ليس جبلاً؟
وما جدوى أن أقنع السراب
بأنّ الماء
لا يولد من الرغبات؟

يطاردونَ خيطَ الدخان ..
بينما كانتِ الأرضُ
بحاجةٍ إلى سنبلة
وكانتِ البلادُ
بحاجةٍ إلى قلب
لا إلى مكبرِ صوت
وكان الناسُ
بحاجةٍ إلى نافذةٍ من نور
لا إلى ألفِ رايةٍ
ترتجفُ فوقَ العتمة.

يطاردونَ خيطَ الدخان ..
ويظنونَ أنّ الدخانَ طريق
وأنّ الرماذَ حصاد
وأنّ التصفيقَ انتصار.

لكنّ النهرَ
لا يصغي للخطباء
والأشجارَ
لا تحفظُ أسماءَ المهرجانات
والسماءَ
لا تنحازُ إلا للطير
حين يكونُ صادقاً
في تحليقه.

فتركّتهم في ضياعهم

يمضونَ خلفَ دخانِهِم
ويجمعونَ من الرِّيحِ
أمجاداً مؤقتةً
وتركتُ للوقتِ
أن يكتبَ شهادتهُ الأخيرة.

فالوقتُ قاضٍ لا يشتري
والأرضُ ذاكرةٌ لا تنسى
والحقيقةُ
مهما أثقلها التراب
تنهضُ ذاتَ فجرٍ
كقمحٍ بريٍّ
شقَّ صخرةَ الموتِ
وخرجَ يغني
للحياة.

وعندما انقشعَ الغبار
لم يبقَ من ضجيجِهِم
إلا أصداً بعيدة
كأنها حكايةُ دخانٍ
أضاعتهُ الرِّيح.

وبقيتِ الحقيقةُ وحدها
تمشي على مهلٍ
في الطريقِ الذي لم يبصروه
لأنهم كانوا ..
منذ البدءِ ..
يطاردونَ خيطَ الدخان.

لا تكسر مدينة الروح

يا أيها الواقفون على حافة الحصار
كأنكم ظلٌ خبيزٍ ..
يتعلم كيف يولد من الرماد
لا الليلُ وصيٌّ على أبوابكم
ولا الحديدُ ..
يعرف كيف يكتب أسماءه في ذاكرة الروح

هنا...
تتكسر خرائطُ الخوف
تحت أقدام الفجر
وتنهض المدنُ من غيبوبتها
كأنها كانت تحلم طويلاً ..
بأن تتذكر صوتها الأول

لا تسألوا الطغاة عن مصير الرياح
فالرياح لا تؤسر في السجون
ولا تعلق على جدران العابرين
إنها فقط... تمر
وتترك في وجوههم غبار ارتباكٍ أبدي

نيرون ..
ليس اسماً في كتابٍ قديم
بل فكرةُ النار ..
حين تظن أنها خلقت لتطفئ الضوء
لكن روما
كلما احترقت
أخرجت من قلبها
سنبلةً أكثر صلابة

وتعلمت أن تعيد ..

تعريف الجرح بوصفه بداية

في الأزقة التي نامت على وقع الخوف
تنهض الخطوات كأنها صلاة المقهورين
ويولد من صمت الجدران
صوت لا يشبه إلا الحقيقة حين تتنفس

يا أبناء الغياب

لا شيء يبقى كما أرادوا له أن يكون
فالطغيان يكتب زمنه بالحبر الأسود
لكن الشعوب تكتبه بالنار...
ثم تعيد قراءته بالضوء

في الحقول التي ظنوها قبوراً للنسيان
تنبت السنابل من عرق المنتظرين
وترتفع الأرض قليلاً...
كأنها تتعلم الوقوف من جديد

لا تصدقوا أن الخراب نهاية
فالخراب مجرد باب آخر للبداية
ولا تصدقوا أن الصمت موت
ففي الصمت تنضج أكثر الثورات خفاءً

وحين يمر التاريخ فوق جراحكم
لا تنحنوا

فالأرض لا تهزم ما دام في ترابها
من يعرف كيف يحول الوجع إلى اسم...
والاسم إلى وطن

لا أحد يعرفني أكثر مني

لا أحد يعرفني أكثر مني
ولا أحد قرأ الطرقات التي عبرتها
حين كنت أمشي وحيداً
كغيمة أضلت طريق المطر.

لا أحد يعرف كم مرّة
جمعت شظايا قلبي من الأرصفة البعيدة
وكم مرّة خبأت وجعي
في جيب قميص قديم
كي لا يراه أحد.

أضحك أحياناً ..
فتظنّ المدن أنني بخير
وتصفقُ الوجوه العابرة
لابتسامتي
لكنّ أحداً لا يسمعون
ذلك الناي الحزين
الذي يعزف في أعماقي
كلّ مساء.

أخفي خلف ابتسامتي
فصولاً كاملة من الغياب
وأخفي خلف ضحكاتي
أنينَ سنواتٍ طويلة
كشجرة تقف شامخة في العاصفة
بينما جذورها في الأعماق
ترتجف من شدة الريح.

لا أحدَ يعلمُ
كم حملتُ من خيباتٍ على كتفي
وكم أوقدتُ من نجمةٍ
في ليلٍ أرادَ لي أن أنطفئ.

فكيف تأتي أنت
من عتيةِ الظنِّ
وتوزعُ الأحكامَ على روجي؟
كيف تقرأُ كتابي
من عنوانٍ ناقصٍ
وتدّعي أنك تعرفُ فصوله كلها؟

أنا لستُ سطرًا في حديثٍ عابر
ولا صورةً معلقةً
في ذاكرةِ الآخرين.
أنا رحلةٌ طويلةٌ
من الأسئلةِ والنجاةِ
ومن السقوطِ والنهوضِ
ومن الخساراتِ التي علمتني
كيف أصنعُ من الرمادِ جناحين.

فدعُ عنك حديثي
واذهبْ إلى مراياك
ففي حياةِ كلِّ إنسانٍ
متاهةٌ تكفيه.

لا تفتشْ في حقايبِ القديمةِ
ففيها غبارُ الأعوامِ
ورسائلُ الحنينِ
وفيه دموعُ جفتْ
قبل أن تراها العيون.

أنا أعرف نفسي جيداً
أعرف ضحكتي حين تكون صادقاً
وأعرف حزني
حين يتنكر بثياب الفرح.

أعرف الطرق التي أوجعتني
والأحلام التي هربت من يدي
كالعصافير
وأعرف أيضاً
أنني ما زلت أزرع الورد
رغم مواسم الجفاف.

أنا ابن عفويتي
وصديق جنوني الجميل
أمشي كما تشتهي روعي
لا كما تشتهي خرائط الآخرين.

أحب أن أكون كما أنا
بنقائصي الصغيرة
وأخطائي التي علمتني
وأحلامي التي لم تتقاعد
رغم تعب الطريق.

فإن أحببتني ..
فأهلاً بك في حديقة قلبي
وإن لم تحبني
فالبحر واسع
والرياح كثيرة.

لأن رأيك بي
ليس شمساً تشرق في سمائي

ولا قمراً يضيء ليلى
ولا وطناً أسكن فيه.

أنا الذي تعلمتُ
أن أستمَدَّ ضوئي من داخلي
وأن أبني بيتي
من يقيني.

لن تغيرني الكلمات العابرة
ولا أصابع الاتهام
ولا ضجيج الذين
يصنعون من الظن حقيقة.

سأبقى كما أنا؛
أمشي إلى نفسي
وأعود إلى نفسي
وأحتمي بنفسي.

فاللَّهُ وحده
يعرفكم بكيث دون دموع
وكم ابتسمتُ رغم الانكسار
وكم أخفيتُ في صدري
بحاراً من الحكايات.

لا أحد يعرفني أكثر مني ..
ولا أحد يعرف أسرار هذا القلب
الذي نجا من العواصف كلها
وظل واقفاً...

كشجرة زيتون عتيقة
تجرحها الريح ألف مرة
لكنها في كل ربيع
تمنح الأرض
ثمراً جديدة.

أَيْنَ السَّبِيلُ إِلَى قَلْبِكَ؟

أَيْنَ السَّبِيلُ إِلَى قَلْبِكَ؟
فَأَنَا عَاشِقُ الرَّحِيلِ ..
أَحْمَلُ الْبِلَادَ عَلَى كَتِفِيَّ
كَمَا يَحْمَلُ الْغَيْمُ وَصِيَّةَ الْمَطَرِ
وَأَمْضِي ...
كَلِمَا ظَنَنْتُ أَنَّ الطَّرِيقَ انْتَهَى
أُنَبِّتُ الْأَفُقَ دَرَبًا آخَرَ
يَشْبَهُ عَيْنَيْكَ.

أَنَا ابْنُ الْمَسَافَاتِ وَالْفَيَافِي
وَصَدِيقُ الْأَرَصِفَةِ الَّتِي حَفَظْتُ
خَطَوَاتِ الْغُرَبَاءِ
أَصَافِحُ الْمَدَنَ
أَتْرَكُهَا تَنَامُ فِي ذَاكِرَتِي
مِثْلَ أَغْنِيَةٍ قَدِيمَةٍ
نَسِيَ النَّاسُ اسْمَ مُغَنِّيِّهَا
وَبَقِيَ لَحْنُهَا يَسْكُنُ الْقُلُوبَ.

فَكَيْفَ وَصَلْتُ إِلَيْكَ
وَأَنَا الَّذِي لَمْ أَصِلْ
إِلَى نَفْسِي بَعْدَ؟

أَيْنَ السَّبِيلُ إِلَى قَلْبِكَ؟
دَلِيْنِي عَلَى نَافِذَةٍ
لَا تَوَصِّدُهَا الرِّيحُ
وَعَلَى بَابٍ
لَا يَخْشَى طَرْقَ الْحَنِينِ
وَعَلَى نَجْمَةٍ

إذا ضلَّ المسافرونَ

قالتُ لهم:

هنا يبدأ الوطن.

لقد تعبْتُ من حقائبِ العمر

ومن خرائطِ

ترسُمُ الجهاتِ كلها

ولا ترسُمُ وجهَ الإنسان

ومن ساعاتِ

تدورُ حولَ نفسها

كأنَّ الزمنَ طاحونةٌ

تطحنُ أعمارنا

ولا تبقي لنا منها

إلا غبارَ الذكريات.

أبحثُ عنكِ ..

كما يبحثُ النهرُ

عن البحرِ الذي وعدَ به

وكما تبحثُ السنابلُ

عن يدِ الفجرِ

لتوقظَ الذهبَ النائمَ في حبوبِها.

إنْ كانَ للحبِّ عنوانٌ

فهو ذلكَ الضوءُ

الذي يسبقُ خطاكِ

وإنْ كانَ للشوقِ صوتٌ

فهو هذا الصمتُ

الذي يملأُ قلبي

كلما نطقتِ باسمي.

يا امرأةً ..

كَلَّمَا مَرَّتِ الْفُصُولُ فِي عَيْنِهَا
أَزْهَرَتِ الْأَشْجَارُ
وَكَلَّمَا ابْتَسَمْتُ
تَذَكَّرْتُ الْأَرْضُ
أَنَّ الرَّبِيعَ
لَيْسَ فَصْلاً مِنْ فُصُولِ السَّنَةِ
بَلْ حَالَةُ قَلْبٍ
وَوِلَادَةُ رُوحٍ.

عَلِّمْنِي ..
كَيْفَ أَعْلَقُ خَوْفِي
عَلَى غَصَنِ شَجَرَةٍ
وَأَدْخُلُ إِلَيْكَ
خَفِيفاً ..
كَأَوَّلِ نَسْمَةٍ
لَا مَسْتُ خَدَّ الْقَمْحِ.

عَلِّمْنِي ..
أَنَّ الْحَبَّ
لَيْسَ امْتِلَاقاً ..
بَلْ نَافِذَةً
يَفْتَحُهَا عَاشِقَانِ
كِي يَتَسَعَ الْهَوَاءُ
لِرُوحَيْهِمَا مَعاً
وَلِلْحَلْمِ الَّذِي يَجْمَعُهُمَا.

لَقَدْ مَرَرْتُ
بِأَنْهَارٍ كَثِيرَةٍ
لَكِنَّ عَطْشِي
كَانَ يَعْرِفُ اسْمَكَ وَحْدَهُ

وجلسْتُ تحتِ آلافِ الأشجارِ
غيرَ أنَّ ظلكِ
كانَ الشجرةَ الوحيدةَ
التي لم تسألني
من أينَ جئتُ
ولا إلى أينَ أمضي.

أينَ السبيلُ إلى قلبكِ؟
دليني عليه
فقد أضعتُ في المنايا
بوصلةَ العمر
وصارتِ الجهاتُ الأربعُ
تتشابهُ
حينَ يغيبُ وجهكِ.

أنا لا أريدُ من الدنيا
قصوراً ..
ولا تيجاناً ..
ولا مجداً ..
تُصَفِّقُ له الساحاتُ
أريدُ مقعداً صغيراً
بقربِ قلبكِ
أستريحُ إليه
كلما أثقلَ العالمُ
كتفي.

فإذا وصلتُ إليكِ
سأعيدُ للريحِ
أجنحتَها ..
وللبحرِ

زرقته الأولى
وللقمر ..
طفولته الفضية
وللشعر ..
ذلك النبض
الذي أضاعه
ضجيجُ العالم.

وإذا لم أصل
فسأظلُّ أمضي...
فالرحيلُ علمني
أنَّ بعضَ القلوبِ
لا تبلغها بالأقدام
بل بالصدق
ولا تفتحُ بالمفاتيح
بل بالنور الذي نحمله
في أعماقنا.

فأين السبيلُ إلى قلبك؟
دليني عليه...
فإني ..
منذُ خلقتُ
أسافرُ من حلمٍ إلى حلم
ومن نجمةٍ إلى نجمةٍ
وأؤمنُ أنَّ أجملَ الأوطانِ
ليسَ ما نولدُ فيه
بل ما يجدُ القلبُ فيه
سلامه الأخير
ويجدُ الإنسانُ فيه
نفسه التي ظلَّ يبحثُ عنها
طوالَ العمر.

أريد أن أعرف

أريدُ أن أعرف...

من الذي حملني إلى هذا الليلِ
قبل أن أتعلم أسماء النجوم؟
ومن الذي دسَّ في جيبي حجارة الغياب
وقال لي:
ستحتاجها كلما أردت أن تعبر قلباً.

من الذي علّق على نافذتي
هذا الشتاء الطويل ..
حتى غدا الصباحُ يتيماً
وصارت الشمسُ تمرُّ بي
كما تمرُّ امرأةً
لم تعد تتذكر اسمي؟

أريدُ أن أعرف...

من الذي كتب على كفيّ
أنَّ الطريقَ إلى الفرح
يمرُّ دائماً
بمقبرةٍ مزدحمةٍ بالأحلام؟

ومن الذي غرس في صدري
كل هذه الأشجار اليابسة
حتى خافت العصافيرُ
أن تبني أعشاشها بين أضلعي؟

أيُّ يدٍ
كانت أوسعَ من قلبي

حتى استطاعت أن تزرع فيه
هذا المحيط من الأسى؟

وأَيُّ بحرٍ
كان أشدَّ ملوحةً من دمي
حتى كلما بكيتُ
فاضتِ الأمواجُ من عيني
وعاد الشاطئُ
غريباً عن خطاي؟

أنا...

ذلك الذي يسافرُ
في أعماقِ حزنه ..
كما تسافرُ سفينةٌ بلا مرافئ
لا تبحث عن اليابسة
بل عن سببٍ واحد
يجعلها تؤمن
أنَّ البحرَ
لم يخلق
ليبتلع أسماءَ العائدين.

وأنا...

أرتبُ في سهراتي خيباتي
واحدةً...
بعد أخرى...

أنفضُ الغبارَ عن وجوهها
وأعيدُ إليها تواريخها
وأعلقها على جدران الليل
كأنني أُمينٌ متحفٍ
يحرسُ انكساراته

من النسيان.

كلُّ خبيّةٍ
كانت تحملُ ملامحي
لكنّها لا تعرفني.

وكلُّ وداعٍ
كان يشبهني أكثر..
كلما ابتعد.

حتى صرْتُ
أودَّعُ وداعي ..
وأبكي
البكاء ذاته
وأفتحُ للأبواب أبواباً أخرى
لعلَّ أحداً يعود...
فلا يعود إلا الصدى.

كم مرّةً
جلستُ إلى الطاولة
وفي الجهة الأخرى كان الغيابُ
يحتسي قهوتي ..
ويقرأ رسائلي ..
ويرتدي صوتي ..
ثم يتركني
غريباً...
حتى عن ظليّ.
أريدُ أن أعرف...

من الذي علّمني
أنَّ القلبَ كلما أحبَّ أكثر

اتسعت فيه مقاعدُ الفقد؟

ومن الذي أقنع العمر

أن يعبر أيامي

بحذاءٍ من شوك؟

كلُّ الذين عبروا حياتي

تركوا نافذةً مفتوحةً للريح ..

وأغلقوا أبوابهم في وجهي.

وأنا...

ظللتُ أجمعُ أصواتهم ..

كما يجمعُ طفلُ أصدافاً مكسورة ..

ويظنُّ

أنها

ستعيد إليه البحر.

لكنَّ البحرَ لم يعد.

ولا الأغنياتُ عادت.

حتى اسمي...

صار يتلعثم

كلما ناداه الحنين.

أحياناً ..

أشعر أنني آخرُ ناجٍ

من سفينةٍ لم تغرق ..

بل غرق ركابها

في أنفسهم.

وأحياناً ..

أظنُّ أنَّ الحزنَ ليس ضيفاً ..

بل هو
سيدُّ هذا البيت
وأنا
ذلك العابرُ
الذي استأذن في البقاء
فنسي كيف يرحل.
يا أيها الليل...

كم استعرتُ منك سوادك
حتى صار وجهي مرآةً لعتمتك.

وكم خبأتُ في جيبي
نجمةً مكسورة
على أمل أن أرّم السماء
لكنَّ السماء كانت أكثر انكساراً مني.
أريدُ أن أعرف...

هل يولدُ الإنسانُ حزيناً ..
ثم يقضي عمره
يبحثُ عن اسمٍ آخر للحزن؟

أم أنَّ الحزنَ ..
هو الذي يولدُ أولاً
ثم يختارُ قلوباً بعينها
ليسكنها إلى الأبد؟

لقد تعبْتُ ..
من حمل هذا القلب
كما يحملُ المسافرُ حقيبةً
نسي منذ سنوات ..

ما الذي وضعه فيها.

وتعبتُ ..

من سؤال الطرقات
عن بيتٍ لا يسكنه الوداع.

ومن سؤال النوافذ
عن وجهٍ لم تغمره الغيوم.

ومن سؤال المرأة
إن كنتُ أنا ..
أم ذلك الغريب
الذي يشيخُ كلَّ ليلة
ثم يولدُ في الصباح بالِمِ جديد.

أريدُ...

ولو مرةً واحدة...

أن أصحو ولا أعدَّ خسائري.

أن أجلس ..
ولا أجدني جالساً إلى جانبي.

أن أنام ..
دون أن أرى قوافل الراحلين
تعبرُ منامي.

لكنَّ الحزنَ يعرف عنواني جيداً.

ويطرق بابي من الداخل.

ويجلسُ قبالي
كلَّ مساء.

ثم يبتسم ..
كأنه يقول:

لن تعرف أبداً
من الذي حمل إليك
كلَّ هذا الحزن...

لأنَّ الحزن إذا طال ..
لم يعد ضيفاً جاء من أحد
بل يغدو الاسم الآخر للروح
حين ترهقها
طولُ انتظارِ الحياة.

وصايا الوطن للطغاة

أيها العابرونَ على صهوةِ الوقت...
لا تطيلوا الوقوفَ عند أبوابِ البلاد.

فالبلادُ
لا تشرعُ أبوابها للخوف ..
ولا تسلمُ مفاتيحها لريحٍ تنههمُ
أنَّ العاصفةَ ..
أمُّ التاريخ.

كم مرَّ من هنا ..
ملكٌ
كان يظنُّ
أنَّ الأرضَ تتبدل
كلما تبدلتُ خطاه.

وكم مرَّ من هنا ..
جبارٌ
كتب اسمه بحدِّ السيف
فمحاه طفلٌ بإصبعٍ مبليٍ
بماءِ النهر.

أنتم...

تبنون عروشكم
من عظامِ الخائفين.

ونحن...

نبني أوطاننا
من صدورِ الذين يعرفون

أَنَّ الجبلَ لا ينحني
بل يهبطُ قليلاً
ليعانقَ الغيم.

أيها الطغاة...

لا ترهقوا خيولكم.

فالطريقُ ..

يحفظُ وقعَ أقدامِ العابرين
لكنه ينسى أسماءَ الذين توهّموا
أنهم الطريق.

كم إمبراطوريةٍ دخلتِ التاريخَ
على إيقاعِ الطبول
ثم خرجتُ منه
صامتةً
كذرةٍ غبارٍ
على نافذةِ النسيان.

وكم رايةٍ
خاصمتِ السماءَ بغرورها
ثم سقطتُ
ولم تجذّ يدأً واحدةً تنتشلها
من وحلِ النسيان.

أما الوطن...

فليس رايةً ترفعُ أو تنزل.

الوطنُ نبضٌ ..

إذا توقف

ماتتِ الخرائطُ جميعها.

وهو الاسمُ
الذي تعجزُ السجونُ
عن تغييرِ هجائه.

وهو الشجرةُ ..
التي كلما قطعوا غصناً من أغصانها
أنبتت من الجرح غابةً.

أيُّها القادمونَ
بخوذاتِ الحديد...

جربوا
أن تحاصروا الفجر.

وجربوا
أن تمنعوا المطرَ
من العودةِ إلى سنايله.

وجربوا
أن تقنعوا الشمسَ
أن تستقيل ..
لأنَّ الليلَ أصدرَ أمراً بذلك.

ستكتشفون
أنَّ بعضَ الأشياءِ
أكبرُ من جيوشكم.

وأنَّ بعضَ الأوطانِ
كلما ضاقتْ بها الأرضُ
اتسعتْ في قلوبِ أبنائها
حتى يغدو الكونُ
أضيقَ من ذاكرتها.

اسألوا التاريخ...

كم طاغيةً

ظنَّ

أنَّه الاسمُ الأخيرُ للقوة.

ثم أصبح سطرًا باهتًا

في هامشِ كتاب

يقبلُبه تلميذٌ دون أن يتوقف

عند صورته.

واسألوا التراب...

كم تاجاً ابتلع.

وكم صولجاناً

حوّله إلى صدا.

أما الوطن...

فما يزال ..

في كلّ صباح يقفُ

على شرفَةِ الزمن

ويقولُ للطغاة:

أنا لستُ عمرَ حاكمٍ...

أنا عمرُ شعب.

أنا لستُ حدوداً

ترسمونها بقلمٍ ثم تمحونها

بتوقيع.

أنا الاسمُ

الذي يخطه الأطفالُ
على الصفحةِ الأولى
من دفاترهم.

وأحمله الشهداءُ
في آخرِ أنفاسهم.

وتورثه الأمهاتُ
كما يورثُ الضوء ..
وكما يورثُ الخبرُ ..
وكما يورثُ الحلم.

فامضوا...

وشيدوا ما شئتم
من عروشٍ ..
وسجونٍ ..
وأسوار.

فالريحُ لا تبايعُ أحداً.

والجبالُ لا تحفظُ
إلا خطى أبنائها.

والتاريخُ...

ذلك القاضي الذي لا ينام
ولا يخطئُ في نطقِ الأحكام...

سينطقُ ..
كما نطقَ ..
منذ فجرِ الخليقة:
يموتُ الجبار...

ويبقى الوطن.

ويذبلُ التاج...

وتبقى الجذور.

وتسقطُ الإمبراطوريات...

وتنهضُ البلاد

كأنها خلقتُ

من عنادِ الخلود.

يا وجع القصيدة

أنا والحزن...
وثالثنا القهوة

يا وجع القصيدة ..

لا أحد يدخل علينا.
فالليل يعرف
أن هذا المقعد لا يتسع
إلا لثلاثة غرباء:
أنا...

وحزني...
ورائحة البن
التي تجيد الإصغاء.

يا وجع القصيدة...

أي باب يؤدي إليك؟

كلما قلتُ:
سأكتبُ نجمةً
خرجتُ من الحبر
مجرةً من المقابر.

وكلما قلتُ:
سأمنحُ قلبي نافذةً على الضوء
استيقظتِ الجهات الأربع
وفي يد كل جهةٍ ليلٌ
يبحثُ عن نافذتي.

القهوة...

ليست شراباً.

إنها ..

رمادُ الوقتِ

بعد احتراقِ العمر.

كلُّ رشفةٍ منها

تعيدُ ترتيبَ خرابي

كما يعيدُ البحرُ

جمعَ حطامِ السفن

لا لينقذها...

بل ليثبتَ أنَّ الغرقَ

أكثرُ وفاءً من الشواطئ.

أشربها...

فأسمعُ أعي

تعجنُ الصبّاحَ بدعائها.

وأرى أبي يصلحُ بابَ البيتِ

الذي هدمتهُ السنون.

أرفعُ رأسي...

فلا بيتَ هناك

ولا أمّاً

ولا أباً...

إلا بخارَ القهوةِ

يصعدُ مثلَ روحٍ

أخطأتُ طريقَ السماءِ.

يا وجعَ القصيدة...

لماذا ..
كلما حاولتُ أن أكتبَ عن الحياة
امتلاَّت يدي برائحةِ التراب؟

ولماذا كلُّ قصيدةٍ
أبدأها بوردةٍ
تنتهي بقبر؟

من الذي ..
يبدلُ أسماءَ الأشياءِ
حين أغمضُ عيني؟

فأُسَمِّي المطرَ:
دموعاً.

والنافذة:
منفى.

والطريق:
جنازةً
تمشي على قدمين.

أنا...

آخرُ من بقي في المدينةِ
بعد أن هاجرَ الجميع.

حتى صدى صوتي
تركني ..
ومضى يبحثُ عن حنجرةٍ
أقل حزنًا.

صرْتُ ..

كلما مررتُ بجوارِ ظلي
صافحتهُ

كأنني ..
التقي ..

برجلي
دفنتهُ ولم يمت.

كنتُ أظنُّ
أنَّ القلبَ نافذةً.

اكتشفتُ أنَّه بيتٌ تقيمُ فيه
كلُّ العواصف.

وكنتُ أظنُّ أنَّ الذاكرةَ حديقةً.

اكتشفتُ أنَّها مقبرةٌ
تزهُرُ
كلما بكيتُ.

يا وجعَ القصيدة...

كم مرَّةً غسلتُ وجهي بماءِ النسيان
فعادَ إليَّ أكثرُ امتلاءً بالوجوه؟

وكم مرَّةً أغلقتُ البابَ في وجهِ الغياب
فدخلَ من ثقبِ القلبِ؟

* * *

القهوةُ لا تواسيني.

هي تعرفُ أنَّ المواساةَ
إهانةٌ صغيرةٌ لوجعٍ كبير.

فتجلسُ صامتةً...

وتدعُ المرارة تتكلمُ
نيابةً عنها.

* * *

كلُّ الذين أحببتُهم
أصبحوا لغةً.
وأنا...

أصبحتُ قاموساً
يحفظُ الكلماتِ
وينسى أصحابها.
كلُّ الذين رحلوا
تركوا
خطواتهم تمشي في دمي.
وكلُّ الذين بقوا
تركوا غيابهم
يسكنُ في اسمي.

* * *

يا وجع القصيدة...
علّمني
كيف ينجو الشاعرُ
من استعاراته.
أنا
كلما شبّهتُ قلبي بطائرٍ
كسرتهُ السماءُ.
وكلما شبّهتهُ

بشجرةٍ ..
جاءتُ ريحُ العمر
وأخذتُ أوراقه.

وكلما شبَّهتهُ
ببحرٍ ..
أيقظتُ فيه السفنُ الغارقةُ
أسماءها.

* * *

أكتبُ...
لأنَّ الكتابةَ ليست حروفاً.

إنها محاولةُ الجرحِ
أن يصيرَ لغةً.

ومحاولةُ الدموعِ
أن تتعلَّم المشيَ
دون عينين.

ومحاولةُ القلبِ
أن يُقنِع الموتَ
بأنَّ الحبَّ كان فكرةً صالحةً
لولا البشر.

* * *

أنا لا أخافُ الموت.

أخافُ أن أموتَ
وتبقى في داخلي قصيدةٌ
لم أكتبها.

أخافُ أن يحملَ الترابُ
كلَّ هذا الكلام
ولا يسمعه أحد.

أخافُ أن تظلَّ أُمِّي
تنتظرُ طرقَةً لن تأتي.

وأن يبقى أبي
واقفاً ..

عند بابِ المساءِ
يحصي نجومَ الغياب
ولا يعرفُ أنَّ ابنَهُ
صارَ نجمةً بعيدةً.

* * *

أنا والحزنُ...

وثالثُنا القهوةُ.

إذا انتهتِ القهوةُ ..
بدأ الليلُ.

وإذا انتهى الليلُ ..
بدأتِ القصيدةُ.

وإذا انتهتِ القصيدةُ...

بدأ وجعُ لا اسمَ له.

لهذا...

كلّما سألتني أحدٌ:

كيف حالكَ؟

أشيرُ إلى فنجانِ القهوة
وأبتسمُ
ابتسامةً شجرةٍ
رأتُ جميعَ فصولِها
تغادرها...

ثم أهمسُ:

أنا بخير...

لكنَّ قلبي ..
منذُ أعوامٍ طويلةٍ
يجلسُ وحدَهُ
في آخرِ القصيدة ..
ينتظرُ بيتاً
لا ينتهي
بالفقد.

إلى قلبٍ أرهقه الحنين

أما زلتِ تذكرين...

ذلك القلبَ الذي تركته
واقفاً عند آخر الطريق
يحرسُ ظلكِ
كما يحرسُ الناسُ
آخرَ قنديلٍ
قبل انطفاءِ المدينة؟

أما زلتِ تذكرين
أنني كنتُ ..
كلما أقبل المساء
أفرشُ للنجوم أسماءكِ
وأعلمُ الريحَ كيف تنطق حروفكِ ..
من غير أن ترتجف؟
رحلتِ...

لكنَّ الرحيل
لم يأخذكِ وحدكِ
بل أخذ الضحكةَ
التي كانت توقظ الصباح
في وجهي ..
وأخذ النافذةَ ..
التي كانت ترى الدنيا بعينيكِ
وأخذ الوقتَ ..
الذي كان يمضي خفياً
كلما مررتِ بقربي.

ومنذ غبت...

لم تعد الساعات تعرف أسماءها
وصار النهار ليلاً يتخفى
بثوبٍ من الضوء
وصار المطر ..
يبكي بصوتي
وصارت الطرقات ..
كلما رأته
تطأطأ هاماتها حياءً
من وحدتي.
يا امرأة...

إذا ابتسمتِ
أزهرت الجهات الأربع
وإذا صمتتِ
أصاب اللغة اليتيم
وإذا مشيتِ
تبعك الربيع حافياً ..
كي لا يوقظ العشب النائم
تحت خطاك.

أيُّ قلبٍ كنتِ تحملين
حتى تركتِ كلَّ هذا الخراب
في قلبي؟

وأيُّ عطرٍ كنتِ تخفين
في أصابعك
حتى إنني ..
كلما مرّت نسمة

حسبتها قادمةً منك
ثم أعود إلى خيبيتي
كطفلٍ أضاع يدَ أمه
في زحام الحياة.

لقد صار الحنين
خبزي اليومي ..
ومائي ..
وصلاتي الأخيرة.

أنام ..
وعلى وسادتي
مدينةٌ كاملة
من الذكريات
وأصحو ..
وفي عينيَّ
ألفُ جنازةٍ لأحلامٍ
لم تجد
من يحمل نعشها.
أكتب إليك...

والورق يرتجف
كما ترتجف يدُ عاشقٍ
يعترف للمرة الأخيرة ..
والحبر ..
ليس حبراً
بل دمٌ
تعلم
كيف يسيل
على هيئة كلمات.

ما أقسى أن تكوني
كلَّ الجهات
ثم أغدو
بعد غيابك غريباً
في الجهات كلها.

وما أقسى
أن يكون للإنسان
قلبٌ واحد
ثم تأتي امرأة
فتملؤه كله
وحين ترحل ..
تأخذه كله.

قالوا:

سينسيك الزمن.

وما علموا أن الزمن
كان أولَ من حفظ اسمك
وأن الليل ..
كلما رأي
أعاد إليَّ وجهك
وأجلسني
إلى مائدة الانتظار
وسقاني قهوةً تفوح بالغياب.
أما أنا...

فما عدت أنتظر عودةً
أعلم أنها لن تكون.
لكنني أنتظر ذلك السلام

الذي وعدت به السماء
كلَّ قلبٍ صبر
حتى تعب الصبرُ منه.

وسأبقى...

كلما أقبل المساء ..
أفتح نافذتي ..
لعلَّ نجمةً عبرت بعينيكِ
أو نسمةً لامست شعركِ
أو دعاءً غادر شفقتكِ
قبل أعوام ..
فيضلُّ طريقه
ويصلُ إليّ.

فإن مررت يوماً
بمقبرة الذكريات
ورأيت وردةً تنبت
فوق حجرٍ
لا اسمَ عليه...

فاعلمي أنها ليست وردةً...

بل قلبي ..
ما يزال يزهرُ لكِ
رغم أن الفصولَ كلها ..
رحلت.

الإنسان... آخر الأوطان

لم أُولدُ وفي كَفِّي رايَةً
بل وَلِدْتُ كما يُولدُ المطرُ
حينَ تنسى الغيمَةُ
اسمَ السماء.

لم يكن على جبيني
سَطْرٌ من خرائط
ولا كانت الملائكةُ
توزع الجهاتِ على الأطفال.

خرجتُ من رحمِ أمي
باسمٍ واحدٍ...
كان يشبهُ نبضَ الماءِ
ويشبهُ الضوء
قبل أن تقسمه النوافذ.

ثم جاءوا...

وألبسوني أسماءَ
كانت أضيقَ من دمي
وأثقلَ من خطاي ..
وأبردَ من يدِ يتيِّمٍ
ينامُ في شتاءِ المدن.

قالوا:

هذا وطنك.

فسرتُ...

حتى رأيتُ ..

أن الوطنَ
ليس الرايةَ التي ترفع
بل اليدَ
التي تظلُّ ممدودةً
حين يسقطُ العالم.

وقالوا:
هذه قوميتُك.

فرأيتُ القومياتِ أشجاراً جميلة
لكنها ..
حين تنسى ظلَّ الإنسان
تتحولُ إلى فؤوسٍ
تقطعُ الغابة.

وقالوا:
هذا دينُك.

فقلتُ:

كلُّ صلاةٍ لا تتركُ في القلبِ
نافذةً للغريب ..
تصعدُ وحدها...
ولا تجدُ سماءً.

* * *

أنا كورديُّ القدر...

أحملُ جبلاً تنامُ في عظامي
كلما ألقوا عليها صخرةً جديدة
أنبتتُ ينابيعَ
وأغنياتٍ برية ..

كأن الصخور تتعلم من الأشجار
كيف تزهر.

وعربيُّ الجوار...

لأن اللغة
حين تفتح نافذة القصيدة
لا تسأل الحروف
من أيِّ فم خرجت
بل إلى أيِّ قلب ستصل.
وتركي المنفى...

لأن المنافي ليست مدناً
بل ساعات معلقة
بين حقيقة وباب لا يعود.
وفارسي الحنين...

إلى حضارات
كانت تكتب أسماء الملوك
على الطين
وتترك للأنهار
أن تحفظ أسماء الفقراء.
وأوروبي...

كلما رأيت الحرية
تفك القيود
عن معصم إنسان
وتزرع مكان الحديد
غصن زيتون.

وأمريني...

كلما آمنتُ أن الطفلَ
يستحقُ حلماً
أكبرَ من صوتِ الطائرات
وأن النافذةَ خلقتُ
لتدخلَ منها الشمس
لا الدخان.

وأفريقي...

كلما رأيتُ الجوعَ
يأكلُ ملامحَ الصغار
حتى يصيرَ
رغيفُ الخبز
أوسعَ من القارة.

وكوردستاني...

كلما سمعتُ
جبلاً
ينادي أبناءه ولا يعودُ إليه
إلا الصدى.

كلما رأيتُ لغةً
تجمعُ حروفها
كما تجمعُ الأمُّ
بقايا ثوبِ طفلها بعد العاصفة.

كلما مررتُ
بشجرةٍ
تحرسُ ذاكرةَ قريةٍ

ولا تجدُ إلا الریحَ
شاهداً عليها.

وسوريٌّ...

لأنَّ الحربَ تعرفُ اسمي
وتعرفُ الطريقَ إلى نافذتي
لكنها

لم تعرفُ يوماً

كيف تهزُمُ

وردةً

تنبتُ

في شقوقِ الخراب.

وأوكرانيٌّ...

ويمنيٌّ...

وسودانيٌّ...

وكلُّ إنسانٍ

أيقظتهُ رصاصةٌ

قبل أن يوقظهُ الصباح.

وكلُّ أمٍّ

كانت ترضعُ طفلها

فأرضعتهُ

بدلاً من الحليب...

الخوف.

* * *

أنا لا أنتمي

إلى الحدود...

فالحدودُ أسوأُ
ترسمُها السياسةُ
ثم تمحوها دمعهُ أُمّ.

أُنتمي ..
إلى اليد التي تضيءُ
عتمّة الغريب.

وإلى الرغيفِ حين ينقسمُ
فيصيرُ أكثرَ امتلاءً.

وإلى الماءِ
حين يعبرُ كلَّ اللغاتِ
ولا ينسى
أن يروي العطش.

وإلى القصيدة...

حين تخلعُ أسماءها
وتدخلُ قلبَ العالمِ
عاريةً
إلا من الإنسان.

* * *

وحين يأتي المساءُ الأخير
ويطفئُ الليلُ مصباحَ قلبي

لا أريدُ شهادةً
تتحدّثُ عن قوميتي
ولا عن ديني ..
ولا عن حدودي.
اتركوا حجري صامتاً...

واكتبوا على الريح:

هنا عبّر إنسانٌ...

وكان قلبه أكبر من خريطة

وأوسع من راية

وأطول عمراً

من جميع الحروب.

حين لم يبقَ لي سوى ظلي

وحدي...

لا لأن الطريق خلا من العابرين
بل لأن الذين مرّوا
لم يلتفتوا.

كنت أمشي بينهم
كظلّ رجلٍ
نسيه صاحبه عند آخر المساء
وأعود إلى البيت بلا جسد.

وحدي...

أطرق أبواباً كثيرة ..
فيعود إليّ صوتي
من الجهات كلها.

أقول للغائب: عُدْ
فيعلق الغيابُ معطفه على باي.

وأقول لمن بقي: ابقَ قليلاً
فيبحث في جيبه
عن عذرٍ جديد للرحيل.

كبرتُ دفعةً واحدة
كشجرةٍ باغتها الشتاء
قبل أن تتعلم اسم الربيع.

لم يكن لديّ وقت
لأكبر ببطء ..

ولا قلبٌ فائض
لأتعلم كيف أخسر
دون أن أخسرني.

ركضت طويلاً ..
خوفاً من أن يفوتني شيء
وحين توقفت لألتقط أنفاسي
اكتشفت أنني كنت أركض
خلف حياتي.

فاتني القطار ..
ثم فاتني المحطة ..
ثم ضللت الطريق إلى البيت
الذي كان ينبغي أن أعود إليه.

حتى المرأة
حدقت في وجهي طويلاً
ثم سألتني:

من أنت؟

قلت:
أنا الرجل الذي تركته الأيام
واقفاً في منتصف عمره.

قالت:
لا أعرفك.

فتركت لها وجهي ورحلت.

ماذا يفعل المرء حين يفقد الطريق
ولا يجد في داخله ..
حتى خريطة للضياع؟

ماذا يفعل ..
حين تصبح العودة
أبعد من الرحيل؟
أنا لا يقتلني الغياب؛
لقد ألفتَه
حتى صار له مقعد إلى جوارِي.

ما يقتلني ..
هذا الحضور الباهت
لأناسٍ يجلسون بقربي
ولا يرونني أغرق.
أن أتكلم
ولا يصل صوتي.

أن أبتسم ..
فتصدّق الوجوه ابتسامتي
ولا تسأل عينيّ ماذا أخفي؟
يا لهذا العالم...
يصدّق الكلام ولا يقرأ العيون.

تعبتُ من ارتداء وجهي
كل صباح ..
ومن التظاهر بالقوة
كي لا يكتشف أحد
أنني أمشي
فوق ما تبقى مني.

عرفت الفقر
حين يصبح الخبز سؤالاً

والغدُ ديناً مؤجلاً ..
لكن أفقر الفقر
كان في يدي حين احتجت يداً أخرى
فلم أجدها.

وفي صوتي
حين أردت أن أقول:

أنا متعب...

فلم أعرف لمن.

حتى الفرح كان وحيداً؛
حدث شيء جميل ذات مرة
فالتفتُ حولي
ولم أجد أحداً
أقول له:

انظر...

يا أصدقاء ..
لم تكونوا أصدقاء ..
دخلتم قلبي خفافاً
كأنكم لن تتركوا أثراً
ثم خرجتم
وتركتم وراءكم
أثاثاً من الخراب.
أنا لا أنسى.

ليس حباً بالذاكرة ..
بل لأن بعض الجراح
لا تتعلم كيف تصير ندوباً.

كلما مرّ الليل ..
من المكان نفسه
نزفت.

وكم ليلة ..
جلستُ فيها إلى جواري
كغريبين لا يعرف أحدهما الآخر.

أقول لنفسي:
غداً.

فتقول:

قلت ذلك بالأمس.

أنظر إلى النافذة؛
مدينة نائمة ..
وآلاف الرؤوس
تستريح على أكتافٍ تحبها.

وأنا...

أضع رأسي على يدي وأقنعها
أنها كتف.

لا شيء أقسى من أن تصبح يدك
كتفك الوحيد.

ولا شيء أشد حزنًا
من أن تتعلم احتضان نفسك
لأن العالم نسي أن يحتضنك.

لم أكن أريد مدينة ..

ولا جمهوراً ..
ولا وطناً يصفق لي.

كنت أريد قلباً واحداً
يقول:

اجلس...
لا تشرح.
لقد رأيت التعب في عينيك.

جملة واحدة
كان يمكن أن تنقذني
من ليالٍ كثيرة.
لكنها لم تأتِ.

فأصبحت أتعلم كيف أنجو
من دون نجاة ..
وكيف أحمل قلبي تحت معطفي
كسرٍ ثقيل.

وفي آخر الليل ..
أخرج شظاياي
من جيوب النهار:

هذه من خيبة ..
وهذه من فقر ..
وهذه من صديقٍ
ظننته أخاً ..
وهذه من بابٍ
طرقته حتى نزلت يدي...
وهذه...

لا أعرف من أين جاءت.

ربما مني.

ثم أغمض عينيَّ
وأهمس:

لعلِّي أستيقظ غداً كاملاً.

لكن الصباح كان يأتي دائماً
بوجه الأمس.

ومع ذلك ..
أبقي نافذتي مفتوحة.

لا لأنني أنتظر أحداً ..
بل أخاف أن يأتي الضوء
يوماً ..
ولا يجد طريقاً إليّ.

وما زلت أكتب.

فالورقة وحدها
لا تتعب من حزني.

أضع رأسي عليها كما يضع المتعب
رأسه على كتف أمه ..
وأقول:

أنا هنا...

أنا الرجل ..
الذي مرّت عليه الحياة
ولم تمنحه وقتاً

ليتعلم كيف يعيش.

أنا الذي خسر كثيراً
حتى صار يخاف من الريح.

أحببت مرةً بكل ما فيَّ
ثم أمضيت عمري
أتعلم البرود.

ولم أعد أريد كثيراً...

فقط باباً لا يغلق ..

ووجهاً لا يتغير
حين يعرف فقري

ويداً لا تنسحب
حين تلمس كسري

وصوتاً يقول لي
لا كوعدٍ عابر
بل كحقيقةٍ تأخرت طويلاً:

تعال...

لقد تأخرت كثيراً
لكنني كنت أنتظرك.

عندها فقط ربما أبكي.

لا لأنني حزين ..

بل لأنني ..

للمرة الأولى ..

لن أكون وحدي.

سأضع هذا الليل
على عتبة الباب
وأدخل...

بلا قناع ..
بلا خوف ..
بلا ذلك الرجل
الذي حمل نفسه سنواتٍ طويلة
كمن يحمل جنازةً
ولا يعرف
من الذي مات فيه.
ربما أعود إليّ.

ربما أجد وجهي القديم
في وجه إنسان
لم يطلب مني شيئاً.
وربما أفهم أخيراً:

لم أكن أبحث
عن حياةٍ جديدة...

كنت أبحث عن قلبٍ واحد
يقول لي:
ابقَ...

فقد تعبَت كثيراً
من الرحيل.

أَيُّهَا الْكُورْدِي

أَيُّهَا الْكُورْدِي ..
لا تفتحِ النافذة كثيراً ..
فالريحُ تعرفُ اسمَكَ والمنفى
يصغي إلى خطَاكَ
من وراءِ البابِ.

أَنْتَ الَّذِي كَلِمَا غَرَسْتَ قَلْبَكَ فِي التُّرَابِ
جاءتْ يَدٌ غَرِيبَةٌ
واقْتَلَعَتْ مِنْهُ شَجَرَةً
ثم قالت:
هنا لا يحقُّ للأشجارِ
أن تتذكر جذورَها.

تمشي ..
فتسبقُكَ جنازةُ ظِلِّكَ
وتنام ..
فتجلسُ البلادُ عِنْدَ سِرِّيرِكَ
وتحصي أسماءَ الذين
لم تعدهم الطرقات.

أَيُّهَا الْكُورْدِي ..
كم أُمٌّ خَبَّأتْ صورتَكَ
تحتَ وسادتها
وأغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا
كي لا ترى الطريقَ
وهو يعيدُ أبناءَها
إلى التُّرَابِ.

في الجبلِ ..

حجرٌ ما زال يحفظُ صوتك
وفي البحرِ
موجةٌ تحملُ اسمك
ولا تبلغُ شاطئاً
وفي قريةٍ بعيدة
نافذةٌ لا تزالُ مفتوحةً
لرجلٍ تأخرَ كثيراً عن العودة.
حتى الورْدُ ..

حين يفتحُ عينيه للربيع
يخشى أن يكونَ احمرَّاه
آخرُ أثرٍ
تركهُ الغيابُ على يديك.

وأنتِ ..
كلما قلتِ: سأعود
كان الطريقُ يبدّلُ وجهه
ويخفي اسمَه
ويمضي بكِ
إلى جهةٍ أخرى من الغياب.

فلا تسألِ الموتَ
لماذا يعرفكُ أكثرَ من الحياة؛
فلعلهُ منذُ ولدتِ
كان يرى فيكِ وطناً يمشي
وكان يعرفُ
أنَّ الأوطانَ التي لا تجدُ مكاناً
قد تضطّرُّ إلى حملِ تراثها
في قلبِ أبنائها.

وحين تناديكِ أمكُ

في آخر الليل:

يا بني...

لا تُجئها.

دع صوتها

معلقاً بين الأرض والسماء

لعله لا يكونُ نداءً لابنٍ غائب

بل صلاةً شعبي

أضاع الطريقَ إلى بيته

وظلَّ واقفاً

على عتبة العالم

ينتظرُ أن يقالَ له ذاتَ يوم:

هنا مكانك...

فادخلْ

ولا تخف.

هذا ما تبقى من الرحيل

مري بسلام..
يا أباي المتبقية ..
فقد أغلقتُ أبواب قلبي
كي لا يتسرب منها
وجعٌ جديد.

مري خفيفةً ..
كظل غيمةٍ على قبر
ولا توقظي التراب؛
فالذين أحببتهم
ناموا تحته منذ زمنٍ طويل.

أنا لم أعد ذلك الرجل
الذي يسقط ..
ثم ينهضُ
كأن شيئاً لم يكن؛
ففي كل سقوطٍ
يسقطُ شيءٌ مني ..
وفي كل نهوضٍ
أتركُ بعضي على الأرض.

لا أريدُ فرحاً...
فالفرحُ صار نافذةً
أخشى أن أفتحها
فيدخلَ منها الغياب.

ولا أريدُ أملاً...
يكفيني أن يمرَّ الليلُ
دون أن يعلقَ
نجمةً ميتةً

في عيني.

كوني رحيمةً بي ..
فالروح التي عبرت
كل هذه الحرائق
لم يبقَ منها
إلا رمادٌ
يتذكّر .. بصعوبة
أنه كان إنساناً.

اتركي لي مساءً هادئاً ..
وفنجان قهوة يبرد وحده
وكرسياً قرب النافذة
لأجلس قليلاً
وأذكر ..
كيف كان وجهي
قبل أن يعرف الحزن.

وإن كان لا بدّ أن تأخذي شيئاً
فخذي ما شئت ...
لكن اتركي لي
هذا القلب الصغير
فما زال .. رغم كلّ شيء
يضعُ أذنه على باب الحياة
وينتظرُ منها
أن تقولَ له
ولو مرةً واحدة:

لقد تعبت ...

فاسترح.

ولا تخفّ من الغد؛

فما بقي من الطريق

ليس كثيراً

وما بقي مني

أقلّ من أن يحتملَ

وجعاً آخر.

أبكي يا زمن

أبكي يا زمن...

لا لأنني فقدتُ الطريق
بل لأن الطريقَ لم يعد يعرفني.

كان أبي يتركُ يده
على كتفي ..
وكانت أُمي
تخبئ المساءَ في صوتها
كي لا يخافَ البيت.

ثم كبرنا...

كبرتِ الطرق
وصغرَ البيت
وصار المفتاحُ
أثقلَ من الباب.

أبكي يا زمن...

فالذين كانوا يملأون المكانَ بأصواتهم
صاروا الآن
أسماءَ معلقةً
على جدار الذاكرة.

حتى الكرسيُّ القديم
ما زال ينتظرُ أحداً ..
والنافذةُ كل مساء
تفتحُ عيناً واحدة
على الغياب.

في داخلي
طفلٌ لم يكبر.

ما زال يركضُ خلفَ ظله ..
ولا يعرف
أن الظلالَ أولُ ما يخوننا
حين يطولُ الطريق.

أقول: أنا بخير...

فتسقطُ من فمي
حجارةٌ صغيرة.

أقول: غداً...

فيأتي الغد
مرتدياً معطفَ الأمس.

يا زمن...

ماذا فعلت بنا؟

أخذت منا الوجوه
ثم أعطيتنا صوراً.

أخذت البيوت ..
ثم أعطيتنا مفاتيح لا تفتح شيئاً.

أخذت البلاد ..
ثم قلت:
هذه خريطة.

ومنذ ذلك اليوم
وأنا أبحثُ عن وطنٍ

لا يحتاجُ إلى دليل.

أبكي يا زمن...

لأنني تعلمتُ
أن الإنسان لا يموتُ مرةً واحدة.

يموتُ قليلاً ..
كلما أغلق باب
وكلما تأخر صوت
وكلما عادَ إلى مكانه
فلم يجد نفسه.

وفي الليل...

حين يبردُ فنجانُ القهوة
ولا يبقى في الغرفة
إلا صمتٌ يشبهني
أجلسُ قرب النافذة
وأحصي الغائبين.

واحدًا...

واحدًا...

حتى أصلَ إليّ.

فأكتشف أنني كنتُ بينهم
منذ البداية.

يا زمن...

اترك لي شيئاً واحداً.
لا تأخذ هذا القلب
الذي ما زال ..
رغم كل شيء

يضعُ أذنه على باب الحياة
وينتظرُ منها خطوةً واحدة.

خذ المدن ..

خذ الطرق ..

خذ الصور ..

خذ ما شئت...

لكن اترك لي
ذلك الضوء الصغير
الذي لم ينطفئ تماماً.

فربما...

بعد كل هذا الليل
تفتحُ الحياةُ نافذةً
لا يدخلُ منها الغياب.

وربما يقولُ الصباح
بصوتٍ خافت:

لقد بكيتَ كثيراً...

فاسترح.

حين اقتسمتُ وجعي مع الزمن

كم وجعاً ..
اقتسمته مع الزمن
وكم «آه»
أودعْتُها الليل
كي لا يسمعها أحد...

كان الليلُ يصغي
وأنا أضعُ قلبي
على حافةِ العتمة
فتسقطُ منه
نجمَةٌ تلوَ أخرى
كأنَّ السماء
تتعلمُ الفقدَ مِنِّي.

لم أكن أبكي؛
كان شيءٌ في داخلي
يذوبُ بصمتِ كشمعةٍ
تخشى أن يفضَحَ نورها
حجمَ العتمة.

كلما مرَّ الزمنُ بي
انترَعَ مِنِّي جرحاً ..
وكلما عاد الليلُ
أعاد إليَّ صمتي.

حتى صرتُ أحملُ في صدري
ليلاً بلا فجر ..
وفي عينيَّ

طريقاً نسي
إلى أين يمضي.

قلتُ للوقت:
خذ ما تشاء...
فلم يبقَ مني
إلا ما عجزتَ عن أخذه.

وقلتُ لليل:
خبّئي قليلاً..
فقد أتعبتني
الأشياء حين تصبحُ واضحة
وأتعبني أكثر
ما لم أستطع نسيانه.
فخبّأي الليل...

لكنَّ الحزن
كان يعرفُ اسمي
ويعرفُ الطريقَ إليّ.

كم «آه»
يحتاجها القلب
كي يتعلم الصمت؟

وكم ليلاً..
يحتاجه الغائب
كي يصيرَ
أثقلَ من حضوره؟

أنا لا أشتاق...

أنا فقط ..

كلما أغمضتُ عينيَّ
سمعتُ في البعيد
خطوةً تشبهني
وصوتاً قديماً يناديني
باسمي الذي تركته
ذاتَ رحيل.

ومنذ ذلك الوقت
صار الزمنُ
يمشي أمامي
والليلُ
يمشي خلفي
وأنا...

أمشي بينهما
كشيءٍ نسي أن يعود.

لا أعرفُ ..
متى بدأ وجعي
ولا متى ينتهي...

أعرفُ فقط
أنني كلما قسمته مع الزمن
زاد
وكلما خبأته في الليل
أضاء في داخلي.

فبعضُ الأحزان
لا تنام...
إنها فقط تطفئُ العالمَ حولها
كي نراها.

أريدُ أن أعرف

أريدُ أن أعرف...

مَنْ الذي وضعَ الجبلَ

في آخرِ الخريطةِ ..

وقالَ للكورديّ:

هذا وطنك ..

لكنْ لا ترفعْ رأسك كي لا تراه؟

مَنْ الذي علَّمَ الحدودَ

أن تكونَ سكيناً

وعلَّمَ البلادَ

أن تنسى أسماءَ الذين كانوا هنا

قبل أن تتعلّم الخرائطُ

كيف تقسمُ التراب؟

أريدُ أن أعرف...

مَنْ الذي قالَ للسهلِ:

أنتَ عربيٌّ ..

وقالَ للجبلِ:

أنتَ تركيٌّ ..

وقالَ للقرية:

امحي اسمك ..

ثم تركَ الكورديّ

وحيداً أمامَ المرأةِ

يسألُ وجهه:

بأيّ لغةٍ كنتُ أناذي أمي

حين ولدتُ؟

أنا الكورديُّ ..
الذي لم يحمل في جيبه
إلا مفتاح بيت
لا يدري
إن كان البيت ما زال واقفاً
وحفنة تراب من أرض
كلما نطقت باسمها
ارتجفت السلطة من حروفها.

أنا ابنُ الجبل ..
الذي لا يطلب من السماء
إلا مطراً قليلاً
ومن التاريخ أن يترك له
ما تبقى من الذاكرة.

لكنني جئتُ إلى مدينة
تكثر من النوافذ
وتمنع الهواء ..
إلى وطن
يقول لي:
أنت مواطن ..
ثم يفثش عن اسمي
في جيبه الأمني
فإذا وجده أعاده إليّ
ممنوعاً من النطق.
أريد أن أعرف...

لماذا كان علينا
أن نثبت كل صباح أننا بشر؟
لماذا صار اسم القرية تهمةً

واللغة مؤامرة ..
والأغنية ملفاً ..
والحلم بعلمٍ دليلاً على الخيانة؟

في سوريا...
كانَ الوطنُ واسعاً
في الخُطب ..
ضيقاً في القلوب.

كانت دمشق ..
تنامٌ تحت ثقلِ التاريخ
وحلبٌ تحملُ رمادها
كأنَّها تحملُ طفولةً
احترقت دفعةً واحدة
والجزيرةُ
ترفعُ وجهها إلى السماءِ
وتسأل:

هل نحنُ من هذا الوطن
حين نطالبُ بحقنا ..
أم نصبحُ غرباء حين نقولُ الحقيقة؟

كنتُ أرى السوريَّ
يهربُ من بيته بمفتاحٍ
لا يفتحُ باباً ..
وأرى الكورديَّ
يهربُ من اسمه
كي ينجو من السؤال.

وكانت الحدودُ
أشدَّ ذكاءً منا جميعاً:
تسمحُ للرصاصِ

أن تعبر ..
وتمنع الأغنية.

تفتحُ الطريقَ للجنرال
وتغلقه في وجهِ الطفل
حين يقولُ:
أنا هنا.

أريدُ أن أعرف...

كم مرّة ..
يجبُ أن يموتَ الإنسانُ
كي تعترفَ به البلاد؟

وكم مرّة ..
يجبُ أن يحترقَ
كي تفهمَ السياسةُ
أن الرمادَ
ليس مواطناً ناقصَ الحقوق
بل ذاكرةٌ كاملةٌ الملامح؟

يا بلادي...

لا أريدُ منكِ شفقةً ..
فالشفقةُ خبزُ الضعفاء
على موائدِ الأقوياء.

أريدُ اسماً لا يمحى ..
ولغةً لا تخفى في الجيوب
وبيئاً لا يحتاجُ صاحبه
إلى تصريحٍ
كي يحلمَ به ..

وقبراً لا يسألُ صاحبه عن قوميته
قبل أن ينامَ في ترابه الأخير.

أريدُ وطناً ..
لا يكونُ فيه الكورديُّ
ضعيفاً على تاريخه
ولا العربيُّ سجيناً في خوفه
ولا السريانيُّ أثراً منسياً
في هامشِ كتاب ..
ولا السوريُّ مضطراً إلى اختيارِ
نوعِ الموت
كي يثبتَ أنه ما زالَ حياً.
أريدُ أن أعرف...

هل الوطنُ
هو الأرضُ التي نولدُ عليها
أم العدالةُ
التي نستطيعُ أن نتنفسَ
تحتَ سقفِها؟

وهل تكونُ سوريا
سوريا حقاً
إذا ظلَّ بعضُ أبنائها يخافونَ
من أسماءِ أمهاتهم؟

وهل تكونُ الحريةُ حريةً
إذا كانَ بإمكانك أن تصرخَ
لكن ليس بإمكانك
أن تقولَ:
مَن أنت؟

أنا لا أبحثُ عن وطنٍ من ذهب
ولا عن تاريخٍ بلا جراح.

أريدُ فقط...

وطناً لا يكذب.

وطناً إذا قال:

أنت ابني

لا يسألكَ بعد ذلك:

من أيِّ قومٍ أنت؟

وطناً لا يجعلُ من الكورديِّ

مشكلةً في الخريطة

ولا من العربيِّ سجناءً في الهوية

ولا من السريانيِّ ذاكرةً مؤجلة

ولا من السوريِّ لاجئاً في ذاكرته.

أريدُ أن أعرف...

مَنْ سيعيدُ إلى الأنهار

أسماءها القديمة؟

مَنْ سيقولُ للجبال:

لم نعد نخافُ من قامتك؟

مَنْ سيجمعُ أسماء الموتى

ويقولُ لهم:

آسفون...

لقد تأخرنا كثيراً

في فهمِ معنى الوطن.

وَمَنْ سَيَاتِي ذَاتَ فَجْرِ
فِيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْبِلَادِ
دُونَ أَنْ يَفْتَشَ فِي جَيُوبِهَا
عَنْ عَرَقٍ ..
أَوْ لُغَةٍ ..
أَوْ مَذْهَبٍ ..
أَوْ ذَاكِرَةٍ؟

حِينَهَا فَقَطْ...

سَأَضَعُ مِفْتَاحَ الْبَيْتِ عَلَى الطَّائِلَةِ
وَأَقُولُ لِلْجَبَلِ:

نَمْ مَطْمَئِنًّا...

فَلَمْ نَعُدْ بِحَاجَةٍ
إِلَى أَنْ نَخْفِيَ أَسْمَاءَنَا.

وَسَأَقُولُ لِسُورِيَا:

هَآ نَحْنُ جَمِيعًا...

الْعَرَبُ وَالْكُورْدُ
السَّرِيَانُ وَسَائِرُ أَبْنَائِكِ
جُنَّا لَا لِنَقْتَسِمَكَ بَلْ لِنُسْتَعِيدَكَ
مَنْ الذِّينَ جَعَلُوا الْوَطْنَ
مِلْكًا لَهُمْ ..
وَالْخَوْفَ قَانُونًا ..
وَالْاِخْتِلَافَ جَرِيمَةً.

وَسَأَعُودُ
إِلَى السُّؤَالِ الْأَوَّلِ:

أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ...

هل كَانَ كُلُّ هَذَا الأَلَمِ
ضرورياً كي نتعلم أخيراً
أن الإنسانَ أُسْبِقُ من الخريطة

وأن الوطنَ أَكْبَرُ من السلطة
وأن الكرامةَ أَقْدَمُ من الدولة

وأن الكورديَّ
حين يقولُ:
أنا كورديٌّ ..

لا يعلنُ حرباً على أحد...!

بل يفتحُ نافذةً
في جدارِ وطنٍ
طالَ عليه الليل.

فوق نعلي

قالوا: اخفضْ صوتك...
فوق الأرضِ أصحابُ المعالي
وفوقَ المعالي أبوابُ
لا تفتحُ
إلا لمن أتقنَ الانحناءَ.

فقلتُ:
أنا لا أملكُ قصرًا ..
ولا أعلّقُ اسمي
على جدارِ سلطان
لكيَّ أملكُ قلباً
لم يتعلمَ كيف يركع.

قالوا: أتدري لمن تتكلم؟
قلتُ: أعرفُ...
ولهذا أتكلم.

فكم من رأسٍ
ارتفعَ فوقَ رؤوسِ الناسِ
ثم انتهى
إلى حفرةٍ
لا تعرفُ الألقابَ.

وكم من يدٍ
كانت تشيرُ إلى الخلقِ
كأنّها قدرُ السماءِ
ثم نامتْ عاجزةً
تحتَ الترابِ.

لا يبقى التاجُ تاجاً
حين يبردُ الرأسُ
ولا يبقى الصولجانُ
صولجاناً
حين تسقطُ اليد.

يبقى الطريقُ فقط...
ويبقى أثرُ القدم.

ذلك النعلُ الذي سخرُوا منه
كان يعرفُ الأرضَ أكثرَ منكم؛
لامسَ ترابها ..
وعبرَ وحلها ..
وحملني
حين أثقلتني المسافات.

وحين قالوا لي:
«عيبٌ أن ترفعَ نعلك
فوقَ أصحابِ المعالي!»
ابتسمتُ...

وقلتُ:
ليس العيبُ في نعلٍ
ارتفعَ لحظةً
بل في رأسٍ لا يرى عظمتَه
إلا إذا وطئَ الآخرين.

إن كانَ ثمنُ الكرامةِ
أن أُسمي عيياً عيباً
فليكنْ...

أنا أختارُ عيياً

ولا أختارُ انحنائي.

فوقَ نَعلي ..
كلُّ أصحابِ المعالي
لا لأنَّ النعلَ أعلى
بل لأنَّ بعضَ الذينَ أُمّامي
اختاروا لأنفسهم
مكناً تحتَ أقدامِ الناسِ.
وأنا...

سأمشي.

سأمشي كما يمشي الذين
لا يملكونَ إلا خطوتهم
ولا يطلبونَ من الطريق
إلا أن يكونَ طريقاً.

فالأرضُ أوسعُ من قصوركُم
والسماءُ لا تسألُ أحداً
عن لقبه.

وحين يسقطُ كلُّ شيءٍ
لا يبقى من الإنسانِ
إلا ما كانَ فيه
حين لم يكنْ أحدٌ يراه.
فامضوا إلى معاليكم...

أما أنا ..
فسأمضي إلى الطريقِ.
يكفيني
أن يكونَ رأسيَ عالياً
دون أن يكونَ
فوقَ رأسِ أحدٍ.

يا صاحبة جروحاتي

قد يعشقُ القلمُ سوادَ الليلِ
حتى يصيرَ الليلُ حبرهُ الأخير
وقد يعشقُ الحبرُ حزني الأزليَّ
فيكتبني على هامشِ الغياب
كأنني آخرُ الناجينِ
من قصيدةٍ لم تجدْ
من يدفنُ موتاها.

يا صاحبة جروحاتي ..
يا امرأةً جاءتْ من الجهةِ
التي يذهبُ إليها قلبي
كلما أضاعَ الطريق
يا خنجرَ ألمي الجميل
يا وردةً نبتتْ
بين شقوقِ صدري
كلما نزلتْ
ازددتْ في دمي عطراً
وكلما حاولتُ أن أنساكِ
أعادني إليك الجرح.

أنا لا أحبك ..
كما يحبُّ العابرونَ نساءهم
أنا أحبك
كما تحبُّ الأرضُ مطراً
تأخرَ كثيراً ..
وكما يحبُّ الغريبُ نافذةً
رأى فيها وطنه
ثم أغلقتْ

قبل أن يلمسَ الضوء.

أحبكِ ..

لأنكِ لم تكوني امرأةً فقط

كنتِ جهةً أخرى لقلبي

وكنتِ وطناً صغيراً

حين ضاقتُ بي الأوطان

وكان عليَّ أن أكونَ منفىً لكِ

حين لم أجدُ في هذا العالم

مكاناً يتسعُ

لقلبيْن من الحالمين.

يا صاحبةَ جروحاتي ..

لا تسألي لماذا

كلما كتبتُ اسمكِ

ارتجفتُ يدي.

فالاسمُ الذي نحبهُ

ليس حروفاً تنادى ..

إنه عمرٌ كاملٌ

يحاولُ أن يعودَ

من آخرِ الطريق.

أنا رجلٌ

أضاعَ نصفَ قلبه في البلاد

وتركَ النصفَ الآخرَ عندكِ

ليحرسَ بابَ الغياب.

فإذا رأيتِ قلبي يوماً

يمشي وحيداً في الشوارع

فلا تناديه ..

دعیه یواصلُ رحلتَهُ
فهو یعرفُ أنَّ الطريقَ إِلَیکِ
أطولُ من عمرِ المسافرِ
وأنَّ الذینَ یعودونَ من الحبِّ
لا یعودونَ کما کانوا.

کم مرّةٍ قلتُ للیلِ:
خذها من ذاكرتی
فأعادَ إِلَیَّ وجهکِ.

وكم مرّةٍ قلتُ للصباحِ:
أطفئْ هذا الحنین
فأشعلَ فی نافذتی
صوتکِ.

وكم مرّةٍ أغلقتُ قلبي
کی لا تدخلی ..
فاكتشفْتُ أنَّکِ کنتِ فیهِ
قبل أن أعرفَ کیفَ أفتحه.

یا امرأةً ..
تسکنُ بین دمی ودمعی ..
ماذا أفعلُ بكلِّ هذا الحنین
إذا لم تکونی هنا؟

أأعلقه على شجرةٍ
کی تأکله الطیور ..
أم أدفنه فی ترابِ قلبي
کی ینبتَ بعد موتی ..
ویقولَ للعابرين:

کان هنا رجلاً

أحبَّ امرأةً حتى صارَ الحبُّ
وطنهُ الوحيد.

أنا لا أخافُ من الفراق
فالفراقُ قديمٌ في دمي
لكنني أخافُ ذلك اليوم
الذي أراك فيه
ولا أعرفُ
أنني كنتُ أحبك.

أخافُ أن يصبحَ وجهك
صورةً عاديةً
على جدارِ الذاكرة ..
وأن يمرَّ اسمك
في قلبي بلا زلزال
وأن أقول:
كانت هنا امرأة ..
ثم أمضي.

لا ..

لا أريدُ حباً ينجو من الألم ..
فالحبُّ الذي لا ينزفُ
لا يعرفُ كيف يكتبُ
قصيدته الأولى.

خذييني كما أنا:
رجلاً من تعبٍ وحنين ..
من ذاكرةٍ مثقوبة ..
ومن وطنٍ كلما حاولتُ أن أحمله
سقط من يدي
كحجرٍ قديم.

خذي ..
ولا تسألي كم بقي مني
فأنا لم أعد
أملك نفسي كاملةً.

تركتُ جزءاً مني
على باب السجن ..
وجزءاً على حدود البلاد
وجزءاً في الطرقات
التي لم تعد تعرفُ
أسماء العابرين
أما الجزء الأخيرُ
فخبأته في عينيكَ
كي لا يراه أحد.

يا صاحبةً جروحاتي ..
يا خنجرَ ألي ..
يا أجملَ ما تركهُ الغيابُ
على جسدِ أيامي ..
إن كان لا بدَّ من الرحيل
فارحلي ببطء ..
كي أستطيع أن أعدَّ خطواتك
وأن أحفظَ المسافةَ التي ستبقى
بين قلبي وبابك.

وإن كان لا بدَّ من البقاء
فابقي كما أنتِ:
جرحاً لا يلتئم ..
ونجمةً لا تطالها يدي
وأغنيةً ..

كلما ظننتُ أنها انتهتُ
بدأتُ من جديد.

أما أنا ..
فسأجلسُ ذاتَ مساءٍ
إلى طاولةٍ وحيدةٍ
وأضعُ القلمَ أُمَامِي
والحبرَ إلى جوارهِ
وأقولُ لهما:
اكتبَا...

لا تكتبَا عن امرأةٍ أحببتها
اكتبَا عن رجلٍ
كان يبحثُ عن قلبه
فوجدَهُ في جرحِ امرأةٍ.

اكتبَا عن وطنٍ
كلما ناداهُ باسمه
أجابهُ الصمت.

اكتبَا عن ليلٍ طويلٍ
كان يريُّ في صدره نجمَةً مكسورة.
اكتبَا عني...

لكن لا تكتبَا النهاية.

فأنا ..
رغم كلِّ هذا الخراب
ما زلتُ أؤمنُ
أنَّ للقصيدةِ باباً آخر ..
وأنَّ للحبِّ، مهما طالَ غيابُهُ

موعداً لا يعرفه
إلا الذين انتظروا طويلاً.

وإذا سألوك يوماً:

من كان ذلك الرجلُ
الذي كتبني
بهذا الحزن؟

قولي لهم:

كان عاشقاً
أضاعَ وطنه في الطريق
فلما وجدَ امرأةً
تشبهُ الوطن ..
خاف أن يحبها
كي لا يفقدَ الوطنَ
مرةً أخرى.

تعالى...

تعالى نرقصُ على جناحِ الليل ..
ونتركُ للنجومِ
أن تعد خطانا
واحدةً... واحدةً
كأنَّ الطريقَ بيننا
ليس مسافةً ..
بل أغنيةٌ تأخرَ مطلعها.

تعالى نكسرُ آلامَ السنين
كما يكسرُ القمرُ
على صفحةِ ماءٍ
لا تعرفُ كيف تبقى
لوجهِ السماءِ ملامحه.

تعالى نقفُ فوقَ القدر ..
فوقَ تلكِ الهاويةِ
التي حفرها الغيابُ بيننا
ونقولُ للوقتِ:
خذْ ما شئتَ من أعمارنا
لكنَّ هذه اللحظةُ
ليست لك.

تعالى...
وضعي يدك في يدي
فمندُ غبتِ
وأنا أمشي بنصفِ قلب ..
ونصفِ ظل ..
ونصفِ حياة

كأنَّ الغيابَ
اقتطعَ مِنِّي الرجلَ
وتركَ لي انتظاره.

أريدُ أن أراكِ
لا كما ترى النساءُ في المرايا
بل كما يرى الوطنُ
في عينِ منفيٍّ
حين يفتحُ نافذةَ الليل
فلا يجدُ في آخرِ العتمةِ
إلا نجمةً
تشبهُ عينيكِ.

أشتاقُ إليكِ ..
كما يشتاقُ البحرُ
إلى سفينةٍ أضاعتها الريحُ
وكما يشتاقُ الطريقُ
إلى خطى ..
تعرفُ سر الوصول.

أشتاقُ إليكِ ..
حتى صارَ الشوقُ
وطناً آخرَ في دمي
وصارَ اسمكِ
جوازَ سفري
إلى الجهاتِ التي لا يبلغها
إلا العاشقون.

يا بعيدةً ..
كآخرِ نجمةٍ
تترددُ في عيني المساءِ

قريبةً ..
كأنفاسي ..
حين أ همسُ باسمكِ ...

كيف استطعتِ
أن تسكني هذا القلب
دون أن تطرقي بابه ؟
وكيف تركتِ على شفتي
كلَّ هذا الكلام
ثم مضيتِ
كأنَّ الكلامَ لا يؤلم ؟
أنا لا أريدُ منكِ وعداً ...

يكفيني
أن تضعي رأسكِ على كتفي
لدقيقةٍ واحدةٍ
لأقولَ لليل:
لقد انتصرتُ أخيراً
على وحدتي.

تعالِ ..
لنقسمِ الشوقَ بيننا:
نصفٌ لكِ
ونصفٌ لي
وما فاضَ من حنيننا
نعلقه على شجرة الانتظار
لعلَّ طيورَ الغياب
تحمله إليك.
تعالِ نقتسمِ المسافة:
خطوةً منكِ ..

وخطوةً مني ..
حتى إذا التقينا
لم يبقَ بيننا طريق
وصارَ الطريقُ نفسهُ
قصيدةً تمشي إلينا.

تعالى...

فأنا لا أملكُ بيتاً
إلا حيثُ تكونين
ولا أعرفُ لليلِ معنى
إلا حينَ يمرُّ طيفكِ
من نافذتي ..
ولا أعرفُ معنى النجاة
إلا حينَ أراكِ
تبتسمين.

أريدُ أن أحبكِ
حباً لا يشبهُ الحب ..
حباً يليقُ بامرأةٍ
جاءت من آخرِ الحلم
لتعيدَ ترتيبَ الفوضى
في قلبِ رجلٍ
أفسدَ الغيابُ ملامحه.

أريدُ أن أكتبَ اسمكِ
على زجاجِ هذه النافذة
كي إذا مرَّ الغريبُ من هنا
عرفَ أنَّ امرأةً
مرت ذاتَ ليلٍ
من هذا القلب

وَأَنَّ رَجُلًا ..
ما زال، منذُ ذلك الحين
يشعلُ مصباحَ الانتظار.

تعالى...

فالعمرُ أقصرُ
من أن نضيعهُ في الغياب
والليلُ أطولُ
من أن ينامَ وحده
وهذا القلبُ ..
الذي أرهقته المسافات
لم يعد يحتملُ مزيداً من الرحيل.

تعالى نرقصُ...

لا موسيقى هنا
إلا خفقُ قلبينا
ولا أرضَ تحتنا
إلا هذا الحنين
ولا سماءَ فوقنا
إلا عيناكِ ..
ولا شيءَ بيننا
إلا نجمةٌ
تخافُ أن تنطفئ
إذا افترقنا.

تعالى...

ولننقلُ للقدرِ معاً:
لقد تأخرنا كثيراً
لكننا وصلنا.

ولنقل للسنين:
خذي أعمارنا كلها
واتركي لنا هذه اللحظة.

لحظةً واحدةً
أحبكِ فيها كما لو أنَّ العالم
لم يخلق بعد
وكأنَّ الليلَ لم يعرفِ العتمةَ
وكأنَّ قلبي
كان ينتظرُكِ منذُ أولِ نبضة.

وكأنني وأنتِ
أولُ عاشقين اكتشفا الليل
وأشعلا في قلبِ العتمة
نجمةً واحدة...
ثم قلنا لها:

كوني شاهدةً علينا
فقد أحببنا رغم المسافة ..
ورغم الوقت ..
ورغم هذا الغياب ..
الذي حاولَ طويلاً
أن يقنعَ قلوبنا
بأنَّ الفراقَ قدر.

لكننا ..
حين التقينا في الحلم
عرفنا الحقيقة:
أنَّ بعضَ القلوبِ لا تفترق...
حتى حين تفصلها
كلُّ الجهات.

حين تزوريني غياباً

تعالى...
نباغثُ القدرَ قليلاً ..
نكسرُ قيده
ونتركُ للغدِ
باباً لا يعرفه الغياب.

تعالى كما تأتى القصيدةُ
حين يضيقُ بها الورقُ
وكما يأتى المطرُ
إلى نافذةٍ وحيدة
ولا يسألُ المدنَ
لِمَن هذا الحنين.

أنتِ بعيدةٌ...
لكنني، كلما أغمضتُ عينيَّ
وجدتُ المسافةَ
أقربَ من نبضي
ووجدتُ وجهكِ
معلقاً في الجهةِ الأخرى
من قلبي.

تزوريني حلماً
فأخبئُ نومي عن الصباح
وأقولُ للوقتِ:
تمهل...
فالحبُّ لم يقلُ بعدُ
كلمته الأخيرة.

أحبك من الجهةِ

التي لا تصلُ إليها الخرائط
من بلادٍ
ضلتِ الحدودُ طريقها إليها
ولا تستطيعُ يدُ الغياب
أن تَضَعَ على أبوابها قفلاً.

وحين أشتاقُ إليك ..
لا أناديكِ...
أتركُ نافذتي مفتوحةً
لعلَّ الريحَ تعرفُ عنوانكِ
وتحملُ إليك
شيئاً من ارتجافِ قلبي.

يا امرأةً ..
كلما ابتعدتِ
اتسعتِ في داخلي
وكلما غبتِ أشعلتِ في دمي
مدينةً لا تنام.

تعالِ...
لا أريدُ منكِ وعداً
فالوعدُ أحياناً
مواعيدُ مؤجلة
على أرصفةِ الغياب.

أريدُ لحظةً واحدة
تتعبُ فيها المسافَةُ
وتسقطُ بيننا كلُّ الجهات.

وإن جئتني حلماً الليلة
فلا توقظيني...
دعي الليلَ يطول
ودعيني أصدقُ أن للبعيدِ وطناً
وأن الوطنَ قد يكونُ امرأةً
أضمها في الحلم
فلا أستيقظ.

ما بين اليأس والأمل

ما بين اليأس والأمل
تترنح أحلامي ..
كطائر مبتلّ
أضاع الطريق إلى سمائه
فلا هو قادرٌ على الموتِ
ليستريحَ من جناحيه
ولا السماء اقتربتُ
ليصدق أنّ للنجاة
باباً آخر.

أمشي...
وفي قلبي جنازةٌ عمرٍ
لم يكتمل ..
أجرٌ ظلي خلفي
كأنني أجرٌ وطناً
أضاعته الخرائطُ
بين اسمٍ واسم.

يا لهذا القلب...
كم كذبَ عليه الأمل
وكم قالَ له الليلُ:
غداً...

ثم جاء الغدُ
بوجهٍ أكثرَ عتمةً
ووضعَ يدهُ على كتفي
وقالَ بهدوءٍ باردٍ:
ليس الآن.

ليس الآن...

وكأنَّ العمرَ كله
كان ينتظرُ موعداً
لا يأتي ..
وكأنَّ أبوابَ النجاةِ
تفتحُ دائماً
في الجهةِ الأخرى
من الحياة.

أنا الذي
كلما بنيتُ نافذةً
هدمتها الريح
وكلما علقتُ قنديلاً
على جدارٍ روحي
جاءَ الليلُ وأطفأهُ
بهدوءٍ مَن يعرفُ
أنَّ الحزنَ
أقدمُ من الضوء.

أمشي ..
وفي جيبي
حفنةُ أحلامٍ مكسورة
أخبئها عن العالم
كما يخبئُ الفقيرُ
رغيفَهُ الأخير.

أقولُ لنفسي:

لا بأس...
سيأتي الربيع.

فتضحكُ شجرةً عاريةً
في آخرِ الطريقِ ..
وتقول:

كم مرَّ علينا
من ربيعٍ ..
ولم يأتِ أحد؟
يا أمي...

لو تعلمينَ
كم أتعبني
أن أبدو قوياً
في كلِّ مرةٍ
كان قلبي فيها
يحتاجُ إلى حُضن.

كم مرةٍ
عدتُ إلى الليلِ مكسوراً
ووضعتُ رأسي
على وسادتي
كمن يَضَعُ وطناً
على قبر.
ثم قلتُ:

غداً...
سأكونُ بخير.

وصدقتُ كذبةَ الغد
لأنني كنتُ
بحاجةٍ إلى كذبةٍ صغيرة

تنقذني
من حقيقةٍ كبيرة.

الحقيقةُ ثقيلةُ
يا صديقي...

أثقلُ من حجرٍ
يحملةُ رجلٌ
إلى أعلى الجبل
ثم يكتشفُ
أنَّ الجبلَ
لم يكنْ أمامه...

بل كان يسكنُ
في صدره.

أنا لا أخافُ الحزنَ ..
لكنني أخافُ
أن أعتاده.

أخافُ أن يصبحَ الليلُ بيّتي
والصمتُ لغتي
والغيبابُ اسمي الآخر.

أخافُ أن أستيقظَ يوماً
فلا أجدُ في قلبي
ذلك الطفلَ
الذي كان يصدقُ
أنَّ العالمَ يمكنُ أن يكونَ جميلاً.

ذلك الطفلُ
الذي كان يرفعُ يدهُ

إلى السماء
كلما رأى نجمة
ولا يعرف
أنَّ بعضَ النجوم
ليستْ إلا ثقباً صغيراً
في ثوبِ العتمة.

ما زلتُ أمشي ...

لا لأنَّ الطريقَ واضح
بل لأنَّ التوقف
يشبهُ موتاً
بلا جنازة.

ما زلتُ أفتحُ نافذتي
كلَّ صباح ..
رغمَ أنَّ الريحَ
تعرفُ عنواني.

وما زلتُ أزرعُ وردةً
في أصيصٍ مكسور
لعلها تعلمُ الحجرَ
كيفَ يلين.

ما زلتُ أحبُّ ..
رغمَ أنَّ الحبَّ
علمني أنَّ القلبَ
قد يكونُ وطناً
تدخلهُ الجيوشُ
ولا تتركُ فيه
حجراً على حجر.

وما زلتُ أحلم...

فالحلم ..

حتى حينَ يخوننا

أرحمُ من واقعٍ

لا يمنحنا

حتى حقَّ الخيانة.

ما بينَ اليأس والأمل

ما زلتُ معلقاً:

نصفُ قلبي

في هاوية اليأس

ونصفه الآخر

يتشبَّثُ بنجمةٍ بعيدة.

ولا أعرفُ

أيهما سينجو.

لكنني أعرفُ

أنني إن سقطتُ ..

فسأسقطُ

وفي يدي

آخر ثوب النور

شيءٌ صغيرٌ جداً

لكنه يكفي

لأقولَ للظلام:

لم تنتصرْ بعد.

فأنا ...

رغمَ هذا الخراب ..

ورغم الذين مضوا ..
ورغم الذين خذلوا ..
ورغم الطرق التي انتهت
قبل أن أصل ..
ورغم قلبي
الذي أرهقه الانتظار...

سأترك للغد
نافذة واحدة.

فربما يأتي
ولا يحمل لي شيئاً...

وربما ..
للمرة الأولى ..
لا يأتي الغد إليّ ...
بل يحملني إليه.

أنا خارجُ ولادةِ التاريخ

أمي...

ولدتُ ..

مع صرخةِ الألم
حين كان الليلُ يتعلمُ أسماءَ ضحاياهِ
وحين كانت الآهاتُ تخبئُ أبناءها
تحت عباءةِ الصمت.

ولدتُ ..

في حضنِ الحسرات ..
حين كان الزمنُ يمشي حافياً
فوق جراحنا
ويتركُ على أبوابِ القرى
أسماءً لا تجدُ قبورها.

ولدتُ ..

مع أنينِ الليلِ المعتم
مع تنهيدةِ الحكايات
حين كانت الجداتُ
يخبئنَ التاريخَ في صدورهنَّ
كي لا تسرقهُ دفاترُ المنتصرين.

ولدتُ ..

حين كان الصيفُ
يخلعُ آخرَ ورقةٍ من شجرته
ويذرُ غبارَ حزنهِ الأصفر
فوق الطرقات
كأنَّ الخريفَ لم يكن فصلاً
بل كان قدراً.

أمي...

ولدت ..

مع كذبة التاريخ

حين قالوا لنا:

كان قابيلُ قاتلاً ..

وكان هابيلُ بريئاً ..

ثم أغلقوا الكتابَ قبلَ أن يخبرونا

مَن الذي ورثَ سكينَ قابيل.

منذُ آدمَ ..

والأرضُ تقسمُ باسمِ الآلهة

ومنذُ نوحَ ..

والطوفانُ لا ينتهي؛

كلما جفَّ الماءُ

بدأ طوفانٌ آخر من الكلمات.

أمي...

ولدت ..

حين كانت دموعُ آرات

تتدحرجُ من الجبلِ إلى السماء

وحين كان الجبلُ

يحاولُ أن يقولَ شيئاً

ولا يجدُ

غير الصمت.

آرات...

يا شاهداً على جراحي ..

أنَّ الجبالَ تبكي

وَأَنَّ الصَّخْرَ
قَدْ يَحْفَظُ مَا تَعْجُزُ
الْوِثَاقُ عَنْ حَفْظِهِ.

وَلَدْتُ ..
مَعَ لُغَةٍ عَارِيَةٍ مِنْ حُرُوفِهَا
لُغَةٍ نَزَعُوا عَنْهَا
أَسْمَهَا
ثُمَّ سَأَلُوهَا:

مَنْ أَنْتِ؟

فَأَجَابَتْ بِصَمْتٍ طَوِيلٍ
كَأَنَّ الصَّمْتَ كَانَ آخِرَ مَا تَبْقَى
لَهَا مِنْ وَطَنِ.

لُغَةٌ عَاقِرَةٌ ..
كَلِمَا حَمَلَتْ قَصِيدَةً
أَجْهَضَتْهَا الْحُدُودُ
وَكَلِمَا أَنْجَبَتْ أَغْنِيَةً
جَاءَ السَّجَانُ
لِيَفْتَشَ فِي حَنْجَرَتِهَا عَنْ جَرِيمَةٍ.

لُغَةٌ
تَحْتَرِقُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ عَامٍ
وَلَا يَصِيرُ رَمَادُهَا
إِلَّا مَزِيداً مِنَ الذَّاكِرَةِ.

أُمِّي ...

أَنَا لَسْتُ تَمَثَالاً ..
وَاقِفاً فِي السَّاحَاتِ الْعَامَةِ

كي يطوفَ الفاسدون حولي
في مواسم الانتخابات
ويضعوا على عنقي
أكاليلَ من الكذب
ثم يبيعوا اسمي
في سوقِ الشعارات.

لا...

أنا لستُ حجراً..
كي ينحتوا وجهي كما يشاؤون
ولا رايةً..
يرفعونها حين يحتاجون
إلى ظلٍّ جديد.

أنا لستُ اسماً على لافتة
ولا صورةً على جدارِ حزب
ولا قبراً..
يحتاجُ إلى خطيب.

أمي...

أنا لستُ رفيقاً لأحد
حين تكونُ الرفقةُ
سُلماً إلى الكرسي
ولا صديقاً لأحد
حين تصبحُ الصداقةُ
مفتاحاً لخزائنِ البلاد
ولا أخاً لأحد
إذا كان الدُمُ مجردَ شعار.

ولستُ ابناً..

لأبٍ سياسيٍّ يتيم الضمير
ولا معصماً ذهبياً
يقدمُ إلى قاضي فاسد
كي تشتري العدالةُ بساعةٍ لامعة.

أنا لستُ طريقاً ..
كي يمرَّ فوقِي العالمُ والجاهل
ولا جسراً قديماً
مكسوراً الروح
تعبرُ عليه القوافلُ
ثم تنسى
مَنْ حملَ خطاياها.
أنا...

لستُ معبراً لأحد.

أنا الجبلُ
حين يرفضُ أن يكونَ درجاً.

أنا الجرحُ ..
حين يتعلمُ
كيفَ يتحولُ إلى ذاكرة.

أنا الصوتُ ..
الذي كلما حاولوا دفنهُ في التراب
أنبتَ من القبر
قصيدة.

أنا الجودي...

لا لأنني نجوتُ من الطوفان
بل لأنني

ما زلتُ أقاومُ الريح ..
وأحملُ فوقَ كتفي
سفينةً لم تصل
إلى شاطئها.

أنا آخرُ ورقةٍ لم تسقطَ بعد
ورقةٌ وحيدة
تعلمتُ من الخريف
أنَّ السقوطَ
ليس دائماً نهاية.
أنا...

ورقةٌ ..
سقطتُ من شجرةِ الحنين
وظلتُ معلقةً
بينَ الأرضِ والسماء
لا هي عادتُ إلى غصنها
ولا رضيْتُ
أن تكونَ تراباً.

أنا خارجُ
ولادةِ التاريخ...

لأنني لم أولد
في الصفحةِ التي كتبها المنتصرون
بل في الهامش الذي مزقوه
وظنوا أنه مات.

أنا ابنُ الحكاية ..
التي لم يسمحوا لها
أن تكتمل.

وحين يسألني التاريخ:

مَنْ أنت؟

لن أقول:

أنا ضحية.

ولن أقول:

أنا بطل.

سأقول فقط:

أنا الذي بقي واقفاً

حين انتهى الجميع

من كتابة السقوط.

أنا الذي كلما أغلقوا بابَ الذاكرة

فتحتُه من جهة الجرح.

وكلما قالوا:

انتهت الحكاية...

رفعتُ رأسي

وقلت:

لم تبدأ بعد.

أعي...

إن كنتِ تسألين

لماذا ولدْتُ هكذا

فلا تبحثي عن اسمي

في سجلاتِ الولادة.

ابحثي عني في الجبال

في الأغاني التي نجت من النار
في اللغة التي بقيت
تتنفس تحت الركام
وفي عين طفل
ينظر إلى وطنه
ولا يعرف لماذا
يمنع عليه أن يسميه.
هناك...

وُلدت ..

لا في رحم التاريخ
الذي كتبوه لنا
بل خارج رحمه
حيث يولد الذين
لا يملكون
إلا ذاكرتهم
كي يقاوموا.

أنا خارج ولادة التاريخ...

لكنني ..
ربما أكون
واحدًا من الذين سيكتبون نهايته.

هنا ...

هنا سأنتظرُ قليلاً ..
حتى ينتهي الليلُ من بكائي ..
فليس للدمعِ
ما يقوله أكثرُ
حين يصيرُ الوطنُ
نافذةً مكسورةً
في بيتِ الغياب.

وهنا سأصمتُ قليلاً ..
حين تمرُّ قوافلُ أحلامي المجروحة
فوقَ جسرٍ من الرماد
فلا أريدُ أن أوقظَ الطريقَ
من نومه الطويل.

سأتركُ للريحِ
أن تفتشَ في جيوبِ الغائبين
عن مفتاحِ البلاد
وسأتركُ للجبالِ
أن تحفظَ أسماءَ الذين
صعدوا إليها
ولم يعودوا.

أنا لا أبحثُ عن وطنٍ
على الخريطة؛
فالخريطةُ التي تقصُّ الجبلَ
من جسده
لا تعرفُ معنى الوطن.

أبحثُ عن وطنٍ

إذا نطقَ الطفلُ باسمه
لم يلتفتِ الجنودُ إلى فمه
وإذا رفعَ الشيخُ رأسه
لم يسألوه:
لماذا تنظرُ إلى السماء؟

هنا سأنتظرُ قليلاً...
فالليلُ ليس خالداً
وإن طال.

كلُّ ليلٍ
يخفي تحتَ معطفه
فجراً صغيراً..
وكلُّ سجنٍ
يتركُ في جداره
ثقباً يكفي لعبورِ أغنية.

علمونا ..
أن نكونَ صامتين
كي نبقى ..
لكنهم لم يعرفوا
أن الصمتَ حين يطول
يتحولُ إلى حجر
وأن الحجرَ حين يتذكر
يصيرُ جبلاً.

علمونا ...
أن ننسى أسماءنا
فكتبناها
على أبوابِ الريح.

قالوا:

لا ترفعوا أصواتكم
فكتبنا القصيدة
بالحروف التي يخاف منها الصمت.

قالوا:
الوطن كلمةٌ خطيرة
فحملنا الكلمة
كما يحملُ الفلاحُ
بذرةً في كفه
ومشينا.

لم نكن نملكُ
سوى هذا القلب
لكن القلب
حين يرفضُ الهزيمة
يصيرُ راية.

ولم نكن نملكُ
سوى هذه الذاكرة
لكن الذاكرة
حين تحاصر
تحفرُ لنفسها
نهرًا تحت الأرض.

يا أيها الليل ..
خذ بكائي إن شئت
خذ كلَّ ما تبقى من خوفنا
لكن اتركْ لنا صوتَ الجبل.

فالذين يظنون
أن الجبالَ صامتة
لم يسمعوا

كيف تنطقُ الصخورُ
حين ينتزعُ منها الوطن.

هنا سأنتظرُ قليلاً ..
لا لأنني ضعيف
بل لأنني أعرفُ
أن الفجرَ
لا يحبُّ الذين يستعجلونه.

سأنتظرُ
حتى تمرَّ آخرُ عربيةٍ
من قطارِ الهزائم
حتى تسقطَ من نوافذِها
أقنعةُ المنتصرين
وحتى يستعيدَ الطريقُ
اسمه القديم.

ثم أمشي.

لا خلفَ أحد
ولا أمامَ أحد.

أمشي
كما يمشي الوطنُ
حين يكتشفُ
أن قدميه ليستا ملكاً للحدود.

سأحملُ خبرَ أمي
وترابَ أبي
وصوتَ الذين
لم يجدوا قبراً
يكفي أسماءهم.

وسأقول للغائبين:

لم ننسكم.

كان الطريقُ طويلاً
وكانت الخريطةُ ضيقةً
وكان الليلُ يضعُ حارساً
على كل نجمة ..
لكننا ظللنا نرى.

وحين سألونا:

ماذا تريدون؟

لم نقل:

قصراً ..

ولا عرشاً ..

ولا ذهباً.

قلنا فقط:

نريدُ أن نعيشَ

دون أن نعتذرَ

عن وجودنا.

نريدُ أن نفتحَ نافذةً

ولا نخافَ من الهواء.

نريدُ أن نقولَ اسمنا

كما يقولُ النهرُ اسمه

وهو يمضي

إلى البحر.

هنا سأنتظرُ قليلاً...

ثم، حين ينتهي الليلُ من بكائي
سأرفعُ رأسي.

لن أبحثَ عن النجمةِ
في السماء؛
سأزرعُ واحدةً
في ترابِ البلاد.

وحين يجيءُ الفجرُ
سأقولُ له:

تأخرتَ كثيراً...

لكنني
لم أمت.

كنتُ فقط
أحرسُ النارَ
كي لا يتعلّمَ الرمادُ
كيف يكونُ وطناً.

وطنٌ ضاعَ بين التَّاءِ والسَّينِ

الزمنُ حبلى بالجهل
يجرُّ بطنه الثَّقل
من قرنٍ إلى قرنٍ
ولا يلدُ
إلا مزيداً من العميان.

وطنٌ ضاعَ
بين التَّاءِ والسَّينِ؛
بين تاريخٍ يكتبه السيف
وسياسةٍ تغسلُ الدَّم عن يديها
وتقسمُ باسمِ الوطن.

كلما قال: أنا
وضعتُ يدُ غريبةً
فاصلةً بينه وبين اسمه.

ثقافته عاقرة؛
فالكُتبُ كثيرة
لكن الحقيقةَ
ما زالت يتيمة.

والشعراءُ
يعلقون قصائدهم
على جدرانِ المديح
ثم ينسون
أنَّ اللغةَ خلقتْ لتقول: لا.

فهل تتقاعدُ القصيدةُ
حين يبلغُ القلمُ الستين؟

أم يبدأ العمرُ
حين يصبحُ الشاعرُ
أكبرَ من خوفه؟

وهل تنامُ الروايةُ
بين طريقٍ وحكايةٍ
والبلادُ مستيقظةُ
على حافةِ كابوسها؟

لا أعرفُ
كيف أقنعُ الحمارَ
أنَّ هذه وردةٌ
وليسَ طعاماً.

أنَّ الرحيقَ
ليس كلُّ ما يشتهي يبتلعُ
وأنَّ بعضَ الأيدي
خلقتُ لتحرسَ الجمالَ
لا لتقطفه.

في بلادنا ..
إذا قلتَ: وردة
سألوك: كم ثمنها؟

وإذا قلتَ: قصيدة
قالوا: وماذا تفعلُ أمامَ دبابة؟

وإذا قلتَ: حرية
التفتوا حولهم
قبل أن يتنفسوا.

يا وطني...

كم مرةً متَّ
كي يكتبوا
تاريخَ موتك؟

رفعوا علمك فوقَ قبرك
وقالوا: انتصرنا.

أيُّ انتصارٍ هذا
والشعبُ آخرُ من يعلمُ
أنه خسر؟

أخشى أن نغير
أسماءَ السجّانين
ونبقي السجن
وأن نبدلَ لونَ العلم
وننسى الإنسان.
يا وطنَ التاءِ والسّين...

متى تعودُ إلى اسمك؟
متى يصبحُ الإنسانُ
مواطناً لا رقماً
والوطنُ بيتاً لا شعاراً
والقصيدةُ
أقوى من التصفيق؟

اتركوا للوردةِ
حقها في الربيع
وللوطنِ
حقه في أن يقولَ:
أنا..

فبعضُ الجمالِ لا يقطفُ...
بل يتركُ حياً ليشهدَ
أنَّ الخرابَ لم ينتصر..

هواءُ حبِّك

حبيبتي...

أهواكِ

حين أضعتني في بحرِ الأمل

فلم أدري:

أكنتُ أغرقُ فيكِ

أم كنتِ تنتشليني

من يباسِ العالم؟

منذُ مررتِ في قلبي

تغيرَ معنى الهواء؛

صارَ لكلِّ نافذةٍ شوقٌ

ولكلِّ ريحٍ

يدٌ خفيةٌ

تشبهُ يدك.

وتستيقظُ أحلامي

كلّما مرَّ اسمك

قربَ نومي ..

كأنَّ الليلَ، قبلكِ ..

كان ظلاماً أعمى

ينتظرُ أن يتعلّم الضوء.

أحبُّكِ ..

كما تحبُّ الأرضُ مطراً

لم يهبطَ بعد ..

وكما ينتظرُ البحرُ موجتهُ

ليكتشفَ، متأخراً ..

أنَّ الشاطئَ

كان يسكنُ أعماقه.

أنتِ لستِ امرأةً

مرّت في حياتي؛

أنتِ المعنى

الذي جعلَ الحياةَ

أكثرَ من مجردِ أيام.

كلّما حاولتُ أن أكتبكِ

ضاقتِ اللغةُ عنكِ

واتسعَ قلبي.

وكلما حاولتُ نسيانكِ

وجدتُ اسمكِ

مختبئاً في الأشياء:

في ارتعاشةِ المطر ..

وفي تعبِ المساء ..

وفي تلكِ المسافةِ الغامضةِ

بين نبضتين.

ما الحبُّ؟

أن يصبحَ الغيابُ

أشدَّ حضوراً من اللقاء

وأن تمتلئَ روحُ رجلٍ

بامرأةٍ واحدةٍ

حتى يبدو العالمُ

أضيقَ من قلبه.

أهواكِ...

لا لأنكِ أجملُ ما رأيْتُ

بل لأنني، حين رأيْتُكِ

للمرة الأولى ..
شعرتُ أنّ في داخلي
شيئاً قديماً استفاق فجأةً
كأنه كان ينتظركِ منذُ أولِ نبضةٍ
في هذا العالم.

ولعلّ قلبي
لم يكن يخفقُ طوالَ هذا العمرِ
إلا ليعرفَ الطريقَ
إليكِ.

وطني... يا وجه القصيدة

وطني يا وجهَ القصيدة ..
يا آخرَ ما تبقى من ملامحنا
حينَ يطفئُ الموتُ أسماءَ الذينَ نحبههم
وحينَ تصيرُ الذاكرةُ
بيتَ الذينَ لا يعودون.

هنا...

الموتُ مقيمٌ على حدودِ الحياة
كحارسٍ أعمى
يعدُّ الغائبينَ واحداً... واحداً
وأنا أعبُرُ بينَ الموتِ والحياةِ
كأنني الناجي الأخيرُ
من حكايةٍ أضاعتْ كاتبها.

أنا الريحُ ..

حينَ يضيقُ بي الطريقُ
وأموأجُ البحارِ
حينَ يثقلها المدى
وزمهيرُ الشتاءِ ..
حينَ أغضبُ
فلا دفءٍ ينجو من عاصفتي
ولا شتاءٌ يجدُ إلى الرحيلِ سبيلاً.

أنا الشمسُ التي تآبى الغروبُ
أعلقُ وجهي على آخرِ الأفقِ
وأقولُ لليلِ:
لن تأخذَ ما تبقى من نهاري
ففي دمي شمسٌ

لم تتعلم كيف تموت.

وإن كتبتُ آلامي ..
فلن أكتبها بحبرٍ عابر؛
سأكتبها بحبرِ النار
كي تعرفَ الورقةُ
أنَّ هذا الجرحَ
ليس استعارَةً
وأنَّ ما احترقَ في القلبِ
لا تطفئهُ القصائد.

يا وطني ..
كم مرةٍ دفنَّا الطريقَ
ثم مشينا فوقَ موته؟
وكم مرةٍ عادَ المنفى
يحملُ إلينا بقايا البيت
وظلَّ نافذةٍ
ورائحةً أمَّ
لم تجدَ وقتاً لتودّعنا؟

أنا لا أبكيك...
فالبكاءُ أصغرُ من حزني
أنا أحملك في دمي
كجرحٍ لا يريدُ أن يبرأ
وكقصيدةٍ
كلما ظننتُ أنني انتهيتُ منها
بدأتُ من جديد.

يا وطنَ الروح ..
إن كان الموتُ واقفاً
على حدودِ الحياة

فدعني أعبُرُ إليه
حاملاً شمساً لا تغيب
وريحاً لا تنحني
وقلماً
ما زال يكتبُ اسمَكَ
على جدارِ النارِ.

فإن سألوني:
ماذا بقيَ لك من الوطن؟
قلتُ:

هذا القلب...
وهذه القصيدة.

وراء البابِ عمرٌ كامل

وقفتُ أمامِ البابِ
كما يقفُ غريبٌ أمامِ قبرٍ
لا يحملُ اسمه
ويبحثُ في خشبِهِ
عن يدٍ كانت تفتحُ له النهار.

لم آتِ لأتذكرَ ما تبقى من الرحيل
فالبيوتُ لا تنسى حين نغادرها
إنها تبقى في عمرٍ مضى هدرًا
كنافذةٍ أغلقتُ على آخرِ ضوء
وكصوتِ أمٍّ
نادت أبناءها إلى العشاء
ولم تعرفُ
أنَّ ذلكَ المساءَ
كان موعدَ الرحيلِ الأخير.

كان البابُ صامتاً ..
يتيماً كآخرِ بيتٍ في المنفى
عاقراً الدموع ..
لكنني سمعتُ خلفه
خطواتِ أعوامٍ كاملة
تمشي حافيةً
في الممرّ.

رأيتُ طفولتي
ترتّبُ أحذيتيها عند العتبة
وفقرتي
يتهمياً أن يكتبَ تاريخه

ووصيتي
تخبي دمعها
كي لا يراه الصغار.

ورأيت امرأة
كلما انكسر شيء في البيت
أخفت صوت الانكسار
تحت قلبها.

يا لهذا القلب ..
الذي كان بيتاً للجميع
ولم يجد فيه أحد
غرفة واحدة يستريح فيها!

كيف حملت كل هذا
ولم تسقطي؟

كيف مشيت ..
والسنوات معلقة على كتفيك
كحقائب المنفيين؟
كيف كنت تجمعين شظايا النهار
بيدين أنهكهما التعب
ثم تبسمين للصغار
كأن العالم
لم يمر من هنا
بكل هذا الخراب؟

ربما لأن الأم
لا تملك ترف الانهيار.

فالبیت ..
حين تسقط أمه

يفقدُ يدًا
تعلقُ على جدرانه
صباحاً جديداً.

آه...

كنتِ تخبئينَ حزنكِ
في آخرِ درجٍ من قلبكِ
وتغلقيينَ عليه
بمفتاحِ الصمتِ
ثم تمضيينَ
كأنَّ قلبكِ
لم يعرفِ الانكسارَ.

كنتِ إذا بكيتِ
غسلتِ وجهكِ قبل أن يراكِ أحد
وإذا انحنى ظهركِ تحتَ ثقلِ الأيامِ
استقميتِ ..

كي لا يتعلمَ الأطفالُ
منكِ شكلَ الهزيمة.

يا أمي ..
أيُّ امرأةٍ كنتِ؟

كنتِ تحمليينَ الشتاءَ
ولا تجدينَ ليدكِ دفئه
وتزرعينَ الربيعَ
في حدائقٍ لم تكنِ لكِ
وتمنحينَ الآخرينَ
ما تبقي من عمركِ
ثم تناميينَ
على سريرٍ من بقاياكِ.

واليوم ..
ها أنا أقفُ أمام الباب
ولا أملكُ مفتاحاً
يفتحُ الماضي.

أضعُ يدي على الخشب
فيخفقُ قلبي
كأنني ألمسُ كتفك.

وأقولُ للبيت:

هل مرّرت من هنا
امرأةٌ كانت تخفي الليلَ
تحتَ ابتسامتها؟

هل ما تزالُ رائحةُ يديها
عالقةً في الجدران؟

هل تذكرُ العتبةُ
كم مرّةً عادتُ إليها
مثقلةً بالحياة ..
ثم دخلتُ
كأنّ شيئاً لم يحدث؟

لا يجيبُ البيت.

فالبيوتُ التي شهدتْ
كلَّ هذا الحبِّ
تتعلّمُ الصمتَ
حين يرحلُ أصحابُها.

أقفُ قليلاً...
ثم أفهم:

لم تكنِ المرأةُ تحملُ البيت
كان البيتُ
يتكى عليها.

ولم تكن تخافُ السقوطَ
لأنها كانت أقوى من الحزن
بل لأنَّ وراءها
عيوناً صغيرة
كانت تحتجُّ أن ترى
أمّاً واقفةً.

كلما أملتُها الحياةُ
استندتُ إلى قلبها
وكلما أثقلها التعبُ
خبَّأتُ وجعها
في أعْمَقِ جهةٍ من الصمت
ثم مضت...

تجرُّ خلفها عمراً لا يراه أحد
وتتركُ على الطريق
شيئاً منها
في كلِّ خطوة.

وحين كبرَ الأطفالُ
وصار لكلِّ منهم
بابٌ بعيد
جلسَتْ وحدها
للمرة الأولى.

.. هناك ..

فقط ..

سمحَتْ لقلبها أن يسقط.

لكنني لا أعرف أين سقط.

ربما هنا ..

أمام هذا الباب

في المكان الذي أقفُ فيه الآن

وأبحثُ عن عمرٍ كامل

بين شقوقِ الخشب.

فأنا لا أبكي البيت...

أبكي امرأةً

مرّت من هنا ذاتَ عمر

وكانت تظنُّ

أنَّ العمرَ يتسعُ لكلِّ ما نحبّ.

أبكيها ..

وهي تتركُ خلفها

أياماً لم تعيشها

وأحلاماً

أجلّتها كي يكبرَ الآخرون.

وأبكي كلّ أمٍّ

أخرتْ دمعتهَا كي لا يراها أحد

وخبأتْ تعبَهَا في آخرِ الليل

ثم نامتْ

كأنَّ قلبها لم يكن بحاجةٍ

إلى أن يُحمَل.

أبكي النساءَ

اللواتي لم يمنحنهنَّ العمرَ

حتى لحظةً واحدة

ليكنَّ ضعيفات...

فبعضُ الأمهاتِ
يطلبُ منهنَّ أن يبقينَ واقفاتٍ
حتى بعد أن ينكسرَ في داخلهنَّ
كلُّ شيءٍ.

وأنا اليوم
لا أفتحُ الباب.

أتركهُ مغلقاً كي يبقى خلفه
كلُّ ما أحببناه.

وأمضي...

فثمّة أبوابٌ لا تفتحُ بالمفاتيح
بل بالعودةِ إلى العمر
والعودةُ إلى العمر
مستحيلة.

وثمّة أمهاتٌ
لا يغادرنَ البيوتَ أبداً؛
يصبحنَ بعد رحيلهنَّ
ذلك الضوء الخافت
الذي نراه آخر الليل
في نافذةٍ بعيدة.

كانت هنا...
ثم يصمتُ كلُّ شيءٍ.

يبقى ظلها معلقاً على الباب
وتبقى يداها في ذاكرةِ الخشب.

كانت...

يا لثقلِ هذه الكلمة

حين تقالُ عن امرأةٍ
أعطتُ عمرها للآخرين
ومضتُ
دون أن تتركَ لنفسها
عمرًا.

كانت...

وكأنَّ العمرَ كله صار ماضيًا
في كلمةٍ واحدة..

الليلة اليتيمة

وقفتُ على عتبةِ بابِ الليلةِ اليتيمةِ
وكان الليلُ واقفاً وحده
كحارسٍ نسي اسمَ المدينة.
مددتُ يدي إلى عتمتها
لا لأسرقَ نجمةً
بل لأستردَّ بعضَ أحزاني
التي تركتها هناك
منذُ آخرِ حلمٍ
لم يجدَ طريقه إلى الاكتمال.

دخلتُ...

فلم أجدِ الليلَ كما تركتهُ؛
كان قد فارقَ الأمل
وأعطاني بكاءه كله
كأنَّ السماءَ أودعتُ في عينيَّ
آخرَ مطرٍ لها.

وقفتُ طويلاً..
حتى ذابت دموعي
في كأسِ عشقي
وشربتُ من حزني
حتى صار الحزنُ يعرفني
وأصبحْتُ لا أعرفُ
أين ينتهي الحزنُ
وأين أبدأ.

قلتُ لليل:

متى يجيءُ الفجرُ؟

فلم يجب.
ظلّ يطوي نجومه
واحدةً تلو أخرى
ويضعها في جيب الغياب
كمن يخفي مفاتيح بيت
لم يعد يعرف طريق العودة إليه.

انتظرتُ...
حتى صار الانتظارُ وسادتي
وصار قلبي نافذةً
مفتوحةً على اللا شيء.

وحين جاء الفجر
لم يأت كما تمنيت؛
جاء شاحباً ..
يمسحُ عن وجهه
بقايا الليل
ويحملُ بين يديه
موتَ أمنيةٍ أخرى.

عدتُ إلى وسادتي
وأغمضتُ عينيَّ
كمن يطفئُ آخرَ مصباحٍ
في روحه.

نمتُ...
وكان الليلُ قد ذابَ من حولي
أما أُملي ..
فظلَّ مستيقظاً قليلاً
ثم عاقرَ كأسَ الغياب
حتى سكر

وسقط إلى جواري
دون أن يقول شيئاً.

ومنذ تلك الليلة
كلما أقبل المساء
أقف على العتبة ذاتها
وأبحث في العتمة
عن حزنٍ لم أبكِه بعد
فلعلّ هناك
في آخر هذا الليل
فجراً آخر
يستحق أن أنتظره.

حين لا يبقى منك سوى الغياب

سيأتي المساء ..
ولا أحد يعرف أنني كنت هنا
سوى نافذة أغلقتها الريح
وظلّ تأخر قليلاً
عن صاحبه.

سيأتي المساء ..
فتبرد الكراسي التي جلسنا عليها
ويصير اسمنا
حرفين غارقين في ماء الذاكرة
ثم لا يبقى للماء ذاكرة.

ربما يعبر رجل
من المكان الذي عبرت منه
فيجد حجراً مائلاً
ولا يدري ..
أن يدي كانت ذات يوم
تستند إليه
كي لا أسقط من الحياة.

وربما تمر امرأة بثوب أبيض
فتظن أن العطر
جاء من الحديقة ..
ولا تعرف أنني دفنت ذات مساء
قلباً كاملاً
تحت شجرة الياسمين.

لم أكن أريد
أن أترك ورائي تمثالاً

ولا صورة معلقة على جدار
كنت أريد فقط
أن يبقى شيء صغير
يشبه ارتعاشة اليد
حين تودّع من تحب.

لكن الأشياء لا تحفظ أصحابها.
البيوت تنسى خطى ساكنيها
والأبواب لا تتذكر
كم مرة فتحت للحب
ثم أغلقت على الفقد.

حتى الطريق
الذي حملني أعواماً
لم يقل حين رحلت:

كان هنا رجل يحمل قلبه
كما يحمل المرء جرحاً
يخشى أن ينزف.

كان الطريق بارداً ..
ومضيت.

يا أيها الغياب ..
لا تأخذ مني اسمي دفعة واحدة
اترك لي منه ما يكفي لأنادي نفسي
حين أخلو إليها.

خذ وجهي ..
خذ صوتي ..
خذ الرسائل التي لم تصل
خذ المدن التي أحببتها

ثم أغلقت أبوابها في وجهي
لكن اترك لي ذلك الحزن القديم
الذي علمني
أن الإنسان لا يموت مرة واحدة.

يموت قليلاً
كلما نسيه أحد.

كنت أظن
أن الموت هو أن ينتهي القلب
ثم عرفت
أن الموت أوسع من ذلك:

أن تجلس في مكان
كنت تملؤه بالكلام
فلا يلتفت إليك أحد.

أن يمر اسمك
على لسان شخص أحببته
فيقوله
كأنه اسم غريب.

أن تجد صورتك القديمة
في درج مهجور ..
فتنظر إلى الرجل الذي فيها
وتسأله:

من أنت؟

كم مرة ..
دفنت نفسي
دون أن يحضر أحد جنازتي؟

مرة ..

حين تركت بيتاً
كنت أظنه وطناً.

ومرة ..

حين غادرتني امرأة
وأخذت معها نصف الضوء.

ومرة ..

حين قلت للحياة:

أنا بخير ..

بينما كان شيء في داخلي
ينادي من قاع البئر.

ومرة ..

حين أدركت أن الذين أحببتهم
يمكن أن يعيشوا بعدي
ببساطة كاملة.

سأمضي.

لا لأن الطريق يعرف وجهته
بل لأن الوقوف
لا يعيد ما انكسر.

سأمضي ..

كما تمضي الغيوم فوق قرية
لا تعرف أسماءها
وكما يمضي المسافر
حاملاً مفتاحاً
لباب لم يعد موجوداً.

سأمضي ..
وفي جيبي حفنة تراب ..
وفي صدري
مدينة لا تظهر على الخرائط.

وإذا سألوني:

من أين جئت؟

سأقول:

من مكان كان لي فيه بيت
ثم صار للذاكرة.

لا تبحثوا عني في المقابر.

أنا لست هناك.

أنا في الطريق الذي لم أكمله ..
في الكتاب الذي تركت صفحته الأخيرة بيضاء
في القصيدة التي ماتت
قبل أن تجد قافيتها
في يد طفل ..

تلوّح لقطار راحل
وفي أم ..
تضع فنجاناً إضافياً على المائدة
ثم تتذكر أن الغائبين لا يشربون.

أنا في الأشياء ..
التي لا يعرف أحد
لماذا تؤلم.

سيأتي يوم
لا يتذكرني فيه أحد.

لا بأس.

فحتى النجوم
التي أضاءت آلاف السنين
تنطفئ ذات صباح
دون أن تسمع السماء
صوت سقوطها.

وحتى البحر
لا يحتفظ بموجة واحدة
مع أنه أمضى عمره
يكتب على الشاطئ
الحكاية نفسها.

وحتى الورد حين يذبل
لا يعتذر للعطر.

فلماذا أخاف أن أنسى؟

أريد فقط ..
حين ينتهي كل شيء
أن يظل في هذا العالم
شيء صغير
لا يعرف اسمي
لكنه يعرف أنني مررت من هنا.

حجر دافئ تحت شجرة
مقعد فارغ في آخر الحديقة
نافذة يوقظها المطر
أو أغنية قديمة
حين يسمعها غريب
يشعر بحزن لا يعرف مصدره.

يكفيني هذا.
أن يكون لي أثر بلا اسم.
وحين يسأل الطريق عن خطاي
لا تجيبوا.
قولوا له:
كان هنا ..
رجل حمل قلبه
أكثر مما يحتمل القلب
ومشى.

كان يحب الحياة
رغم أنها أخذت منه
أكثر مما أعطته.

وكان كلما خسر شيئاً
خبأه في قصيدة
حتى صار صدره
مقبرة من الكلمات.
ثم رحل.

لا نعرف إلى أين.

لكننا، منذ ذلك اليوم
كلما هطل المطر ..
سمعنا في الحجارة صوتاً يشبهه.

قد أنسى اسمي
وقد تنسى الأرض قديمي
وقد يصير وجهي
خطأً باهتاً في دفتر قديم.
لكنني لن أطلب من أحد

أن يتذكرني.
فالتذكر ليس خلوداً.

الخلود الحقيقي
أن تستطيع أن تغيب
دون أن يتحول غيابك إلى كذبة.

أن تقول للحياة:
كنت هنا.
ثم تتركها دون شاهد.

وفي آخر الليل ..
حين تنطفئ المدن
ويعود كل غريب إلى وحدته
سأجلس وحدي على حافة العمر
وأضع سنواتي أمامي
كأوراق مبتلة.

سألمس وجوه الذين أحببتهم
واحداً واحداً ..
وأقول:

سامحوني
لأنني لم أستطع أن أبقى.
ثم أطفئ المصباح.

لا لأنني انتهيت ..
بل لأنني تعبت من إقناع العتمة
بأنني ما زلت هنا.
وحين لا يبقى مني إلا هذا الصمت
سيأتي الصباح.

وستفتح شجرة زهرة جديدة.
وسيمر طفل دون أن يعرفني.
وسيمشي في الطريق
فوق ظلي القديم.

عندها فقط سأعرف أنني نجوت:
لم يبق مني أحد ..
لكن الحياة واصلت سيرها.

وهذه هي نهاية مشواري...
أن أمضي ..
ويواصل العالم سيره من دوني
ولا يبقى مني إلا قلبٌ مجهول
يقول ذات مساء:

كان هنا إنسان...
أحب كثيراً ..
وخسر أكثر مما احتمل ..
ثم مضى.

ترك وراءه قليلاً من الضوء
وكثيراً من الغياب ..

أيلول آخر الرحيل

تحملُ رياحُ أيلول
أسماءَ الذين مضوا ..
وقميصَ غيابٍ ما زال مبللاً بالمطر.

تمرُّ بشجرةٍ وحيدة
فيخرج من بين أوراقها طفلٌ قديم
يركض خلف فراشة
ولا يعرف أن الطريق
أطول من قدميه.

وفي نافذةٍ نصفٍ مفتوحة
تترك الريحُ رائحةَ الخبز
وظلَّ أمّ
ما زالت تنتظر عائداً
تأخر أربعين خريفاً.

وأنا ..
أفتش في جيوبها
عن مفتاحِ صدئ
عن بابٍ نسي بيته
وعن جهةٍ تعيد الغريب إلى نفسه.

كلما هبت ..
تساقط من قلبي
ورقٌ لم أكتبه
ورسائلُ أضاعت عناوينها ..
وأحلامٌ لم تعرف
أن البلاد

قد تغلق أبوابها
في وجه أبنائها.

أيلول...

أنت لا تسقط الأوراق؛
أنت تسقط ما تبقى من أعمارنا.

ورقةً بعد ورقة ..
حتى نقف عراءً أمام الشجرة
ولا نتذكر
متى فقدنا الربيع.

في حقيبتك حفنة تراب
حجرٌ من الطريق
صوتُ ماءٍ بعيد
ووجهُ امرأةٍ
نسيته السنوات ولم أنسه.

وفي آخرها
صوت أبي:
لا تبتعد كثيراً...

لكنني ابتعدت.
كبر الطريق ..
وصار الوطن
مكاناً أحمله في صدري
كلما عجزت الجغرافيا
عن حملي.

أمشي...
والريح تمحو خطوي

كأنها لا تريد أن يعرف أحد
أنني مررت من هنا.

وحين أصل إلى آخر الرحيل
لا أجد وطناً.

أجد شجرةً عجوزاً
تسألني بصمتها:

هل كنت تبحث عن البلاد
أم عن نفسك
حين فقدت البلاد؟

أضع رأسي على جذعها
فأسمع في خشبها
خطى الذين مضوا.
وأفهم أخيراً:

لم يكن المنفى
أن أبتعد عن الوطن؛

كان أن أحمله معي إلى كل مكان
ثم أعجز عن الوصول إليه.

تغيب الريح...
وأفتح حقيبتي.
لا أجد سوى
ورقة صفراء
كتبت عليها ذات خريف:

ليس الشوق أن تشتاق إلى مكان
بل أن يبقى المكان فيك
حين يصبح الوصول إليه
مستحيلاً..

وحين أُغلقُ هذه الصفحات..
لا تبحثوا عني بين الكلمات؛
فقد تركتُ شيئاً من روحي
في الجملة التي لم أجزؤ على إتمامها
وفي حنينٍ ظلَّ معلقاً بين نبضتين.
وإن وجدتم في آخر الصفحة
ارتعاشَ ضوءٍ لا يُرى
فاعلموا أنني مررتُ من هنا
مثقلاً بكلِّ الذين أحببتهم
وبكلِّ الذين
لم أستطع إنقاذهم من الغياب.
وحين يبرد الحبر..
وتنام القصيدة..
ضعوا أيديكم على هذا البياض قليلاً...
فلعلَّ قلبي كان آخر ما تبقى لي من وطن
ولعلَّ الحنين ذلك الاسم السريَّ
الذي ظلت روحي تناديني به
كلما ضللتُ الطريق إلى نفسي.
وإن لم تجدوني بعد ذلك..
فلا تقولوا إنني رحلت؛
ربما كنتُ هناك..
في المسافة الخفية
بين آخر حرفٍ
وأول دمعة.



أَحَنُّ إِلَى مَا لَا يَعُودُ،
إِلَى وَطَنِ يَسْكُنُ فِي دَاخِلِي
وَلَا يَسْكُنُ فِي الْجُغْزَافِيَا،
إِلَى مَلَامَحَ غَابَتْ
وَلَمْ تَغِبْ مِنْ قَلْبِي،
إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ
الَّذِي أَسْمِيهِ وَطَنًا
مَهْمَا ابْتَعَدْتُ عَنْهُ الْمَسَافَاتِ ...

مَحْرَابُ الْحَنِينِ

لَأَنَّ الْحَنِينَ لَيْسَ مَجْرَدَ شَوْقٍ
بَلْ هُوَ وَطَنٌ آخَرُ فِي الْقَلْبِ

د. عدنان بوزان

